ملحمة أبى عبيدة فى الإسلام

لاشك أن أبا عبيدة دخل دوحة الإسلام بمجموعة من المناقب، هى التى دفعت به إلى أن يكون من السابقين الأولين، وألا يطول به التفكير ليلتمع نور الإسلام فى صدره ويهتدى إلى الإيمان. وتشمله هداية تامة مع مناقبه ليزداد صقله فى رحاب الدين الذى آمن به، وقاده إلى اليقين فى الواحد الأحد رب العالمين، وإلى الإيمان برسوله صلى الله عليه وسلم الذى فنت ذاته فى النهوض برسالته الكبرى التى آمن بها أبو عبيدة، وآمن بواجبه فيها. هذا الواجب الذى حداه ألاَّ يلتفت إلى ذاته ولا إلى زخرف أو بهرج أو صيت أو جاه، وأن يكون للكل مؤثرًا إياهم على نفسه، فصار منذ أسلم مبكرًا ـ فى صدارة المجاهدين بالمعنى الحقيقى الأصيل الرفيع، وسطر بسيرته ملحمة لافتة من الجهاد.

فى مكة
والهجرة إلى الحبشة

تعرض المسلمون منذ تسرب نبأ الدعوة، إلى اضطهاد شديد من كبار قريش، شارك فيه الغلمان والسفهاء.. فقد شنفت قريش للنبى، وجعل طواغيتها يتهمونه بالجنون والكهانة، منهم من يقول مجنون، ومنهم من يقول كاهن، ومنهم من يقول شاعر.. فنزلت سورة القلم ترد على استهزائهم، ومع نزول سورة الشمس بدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم، فى دعوة عشيرته الأقربين، فلم يلب أحد منهم دعوته، وترصده أبو لهب، وطفق يحرض بنى هاشم أن يأخذوا على يديه، ويعترضه اعتراضًا غليظًا، ويحرض قريشًا عليه، ويحثها على أن تذهب بنذيرها وتهديدها إلى عمه أبى طالب.. وأخذت قريش تتصاعد فى نكيرها وصدها وإعناتها لمحمد، فلما أخفق سعيهم معه، ويئسوا من إثنائه، أمسكوا

بتلابيب المستضعفين، يهددونهم ويتوعدونهم ويذيقونهم من صنوف العذاب ألوانًا شهدتها رمضاء مكة فيما جرى لبلال وغيره من العبيد والمستضعفين، ثم جعلت قريش تلاحق من آمن من أبناء الأشراف، فلم ينج منهم عثمان بن عفان، ولا الفتى الزبير بن العوام، ولا الفتى طلحة بن عبيد الله، ولا خالد بن سعيد ابن العاص، ولا سعد بن أبى وقاص، ولا مصعب بن عمير الذى كان من أنهد فتيان قريش، وأخذ التعذيب يباشر فى البيوت. لحق بهؤلاء ولحق بخباب بن الأرت فى بيت أم أنمار بمكة، وبعبد الله بن مسعود بجانب البيت العتيق، وبعمار بن ياسر وأهله، فحرقت دارهم، وأخذوهم إلى رمضاء مكة ليباشر السفهاء تعذيبهم تحت وهج الشمس الحارقة بقيادة الزعيم أبى الحكم عمرو بن هشام الذى لقب فى الجاهلية والإسلام بأبى جهل. ولم يتوقف التعذيب لآل ياسر عند هذا الحد، فقتلت سمية أم عمار بطعنة نجلاء من حربة أبى جهل، ولحق بها والده ياسر بضربات غاشمة من الطاغية أبى جهل حتى فاضت روحه إلى بارئها، ولم ينج أبو بكر على مكانته وسنه من انفلاتات القرشيين انتقامًا من تحريره للعبيد، حتى لم يجد الرسول صلى الله عليه وسلم بدًّا من أن يحض أصحابه على الهجرة، ويقول لهم: «تفرقوا فى الأرض فسيجمعكم الله تعالى»... وحين سألوه، أشار بالحبشة قائلاً لهم: «إن بها ملكًا لا يُظلم عنده أحد، وهى أرض صدق، حتى يجعل الله لكم فرجًا مما أنتم فيه».. وروى الرواة أن الهجرة الأولى للحبشة كانت فى رجب فى السنة الخامسة من المبعث، وهاجر فيها أحد أو اثنا عشر رجلاً، اصطحب أربعة أو خمسة منهم زوجاتهم معهم إلى الحبشة، وقيل إن بعضهم رجع فى شوال فى السنة نفسها بناء على أخبار كاذبة، فلما عادوا وجدوا المسلمين كالذى كانوا فيه وأشد!!

ولم يرد بالروايات أن أبا عبيدة كان ضمن الفوج الأول الذى هاجر إلى الحبشة، ولم يرد أيضًا بالروايات أنه تعرض لملاحقة ثقيلة من قريش.. على أن قريشًا

لم تهدأ بهجرة من هاجروا إلى الحبشة، وازداد سعارها بعد أن أسلم عمر ابن الخطاب بعد إسلام حمزة بن عبد المطلب.

ومع تصاعد هجوم قريش وإعناتهم للمسلمين، والإغراق فى إيذائهم بشتى السبل، والتضييق عليهم فى حياتهم وسبل عيشهم، وملاحقتهم بالنكال والسخرية والاستهزاء، خرج الفوج الثانى من المسلمين مهاجرين الهجرة الثانية إلى الحبشة، وكانت بعد عودة من عادوا من الحبشة بقليل، بعد أن لاقوا من قريش إيذاءً أشد، وكانوا ٨٣ رجلاً، و١٨امرأة، وفيهم جعفر بن أبى طالب وزوجته أسماء بنت عميس، وأبو عبيدة بن الجراح، وعبد الله بن جحش ابن عمة رسول الله، وأخوه عبيد الله ومعه زوجته حبيبة بنت أبى سفيان وقد تنصَّر ففارقته هناك بالحبشة، وتزوجها الرسول وهى هناك بعدما علم بما حدث لها من تنصر زوجها ومفارقتها له، وكان ضمن هذا الفوج أيضًا: المقداد بن الأسود، وعياش بن أبى ربيعة المخزومى، وهشام بن العاص أخو عمرو، وعمار بن ياسر، وفراس بن النضر بن الحارث الذى فَرَّ بدينه من ملاحقة أبيه له!

وبذلك أخذ ابن الجوزى، فأورد فى «صفة الصفوة»[1]، أن أبا عبيدة هاجر فى الهجرة الثانية إلى الحبشة، وبذلك أيضًا أخذ الدكتور محمد حسين هيكل فى حياة محمد[2]. وأورد أن معظم الروايات تفيد أن هجرته للحبشة كانت فى الدفعة الثانية، وأن هذا مستفاد أيضًا من رواية ابن إسحق، على ما سوف نعود لإيضاحه.

ومما يروى عن طغيان قريش وإمعانها فى ملاحقة المسلمين، أنه بلغ من كيدها أن أوفدت عمرو بن العاص ـ وكان آنذاك لا يزال على الكفر ـ وعبد الله بن أبى ربيعة، ليدسا للمسلمين بالحبشة، ويحرضا عليهم البطارقة والنجاشى، ويؤلبا النجاشى عليهم ليطردهم من بلاده، لولا أن طاش سعيهما لما حرص النجاشى

(١) صفة الصفوة. ابن الجوزى ١٩٢/١.

(٢) حياة محمد. د. محمد حسين هيكل ص ١٦٩.

على أن يسمع للمسلمين قبل أن يبت فى أمرهم، فلما سمع منهم وعرف حقيقة دينهم وما جاء به عن عيسى عليه السلام، بكى حتى اخضلت لحيته، وقال لمن حوله: «إن هذا والذى جاء به عيسى ـ ليخرج من مشكاة واحدة».

والراجح أن أبا عبيدة لم يطل المكث بالحبشة، وعاد إلى مكة قبل الهجرة إلى المدينة، وبقى بصحبة الرسول عليه الصلاة والسلام فى مكة. يرجح ذلك أن معظم المصادر والمراجع لم تذكر اسم أبى عبيدة ضمن من بقوا بالحبشة حتى هاجروا منها مباشرة إلى المدينة بعد هجرة رسول الله إليها. مما يؤكد أنه عاد إلى مكة، والراجح عكس ما ارتأى البعض ـ أنه بقى بمكة حتى أذن له بالهجرة منها إلى المدينة، قبل قليل من هجرة الرسول عليه السلام إليها وفى صحبته أبو بكر الصديق.

على أنه أيًا كان الأمر فى الترتيب الزمنى للهجرة إلى المدينة، وهل كان ذلك من الحبشة مباشرة إليها أم بعد دعوته إلى مكة ثم منها إلى المدينة، فإن المقطوع به أنه كان بالمدينة من باكورة وصول النبى ﷺ إليها، وحضر المؤاخاة، بين المهاجرين والأنصار، وآخى الرسول ﷺ بينه وبين الأنصارى أبى طلحة زيد بن سهل الأنصارى النجارى فى رواية، وعلى مثل ذلك ابن الأثير فى أسد الغابة[1]، بينما أورد الشامى فى سبل الهدى والرشاد[2] ـ أن هذا هو ما أورده البخارى بأوائل كتاب البيوع، إلا أن يكون قد آخى بين أبى عبيدة وسعد بن معاذ، وعاد الشامى وأورد أن المؤاخاة كانت مع سعد بن معاذ وقيل محمد بن سلمة[3].

ومعظم المصادر تشير إلى أن المؤاخاة كانت مع سعد ابن معاذ، ذكر ذلك ابن سيد الناس فى السيرة النبوية (عيون الأثر)[4]. وهو ما أورده ابن هشام

---

(١) أسد الغابة لابن الأثير ١٢٩/٣.

(٢) سبل الهدى والرشاد فى سيرة خير العباد. محمد يوسف الصالحى الشامى ٥٢٧/٣.

(٣) سبل الهدى والرشاد فى سيرة خير العباد. محمد يوسف الصالحى الشامى ٢٩٨/١٢.

(٤) عيون الأثر فى السيرة النبوية. ابن سيد الناس ـ ٢٦٦/١.

فى سيرته نقلاً عن ابن إسحق[1]، وعلى ذلك ابن كثير فى صفوة السيرة[2]، وابن عساكر فى تاريخ دمشق[3]، كما أكد أن المؤاخاة كانت مع سعد بن معاذ: الذهبى فى تاريخ الإسلام[4]، والعسقلانى نقلًا عن الواقدى فى الإصابة فى معرفة الصحابة[5]. وكذلك فى السيرة الحلبية للشامى كما تقدم[6]، وهو ما أخذ به عبد الرحمن عميرة فى كتابه: «رجال ونساء أنزل الله فيهم قرآنًا»، وورد بالطبقات الكبرى[7]، أن أبا عبيدة نزل بالمدينة على كلثوم بن الهدم.

على أن هذه الروايات، مع ترجيحنا أن المؤاخاة ـ طبقًا لمعظم المصادر ـ كانت مع سعد بن معاذ، إنما تؤكد أن أبا عبيدة بن الجراح كان موجودًا بالمدينة فى وقت باكر جدًا يكاد يلازم وصول الرسول عليه الصلاة والسلام وصاحبه أبى بكر إليها.

وجدير بالذكر أن ابن هشام أورد فى سيرته، نقلًا عن ابن إسحق، أن أبا عبيدة كان فيمن عادوا إلى مكة بعد أن بلغهم الخبر الكاذب عن إسلام قريش، مع أنه لم يورد اسم أبىعبيدة ضمن الأحد عشر مهاجرًا الذين هاجروا الهجرة الأولى إلى الحبشة، وباستقراء ما أورده ابن هشام فى السيرة[8]، استبان أن سبب هذا الخلط أن ابن هشام بعد أن نقل عن ابن إسحق أسماء الأحد عشر مهاجرًا الذين هاجروا الهجرة الأولى إلى الحبشة، ولم يذكر أبا عبيدة بن الجراح منهم.. استطرد متابعًا لابن إسحق، قائلاً: «ثم» خرج جعفر بن أبى طالب ومعه زوجته أسماء بنت عُميس، وتابع بيان أسماء من هاجروا فى الهجرة الثانية، وأحصى

---

(١) السيرة النبوية. ابن هشام ١٢٤/٢ ـ ط دار الشعب.

(٢) صفوة السيرة ـ ابن كثير ١٥٨/٢.

(٣) تهذيب تاريخ دمشق الكبير ـ ابن عساكر ١٦١/٧.

(٤) تاريخ الإسلام ـ المغازى ـ شمس الدين الذهبى ص ٢٧٢.

(٥) الإصابة فى تمييز الصحابة. ابن حجر العسقلانى حرف العين ـ القسم/١ ـ ص٢٥٢، ٢٥٣.

(٦) سبل الهدى والرشاد فى سيرة خير العباد. محمد الصالحى الشامى ٥٢٧/٣، ٢٩٨/١٢.

(٧) الطبقات الكبرى. ابن سعد ٢٩٨/٣.

(٨) سيرة النبى. ابن هشام ٣٤٤/١. ط دار الشعب.

أن عددهم ثلاثة وثمانون رجلاً. وأسماؤهم مختلفة عن الأحد عشر اسمًا الذين ذكر هجرتهم الأولى، دون أن يسبغ على هذه المجموعة أنها الهجرة الثانية إلى الحبشة، ربما بسبب أن هجرتهم كانت بعد قليل من عودة من عادوا من الحبشة فى شوال من السنة الخامسة من المبعث. وأدى ذلك إلى «اندماج» الأسماء دون فاصل واضح اكتفاءً بأداة العطف «ثم» مشمولة بكلمة هاجر[1].

ولكن الفاحص يستطيع بسهولة أن يميز بين الهجرتين إلى الحبشة، فعدد الفوج الأول ١٠ أو ١١ من الرجال. والفوج الثانى ٨٣ من الرجال، وأسماء من هاجروا فى الفوج الأول، تختلف عن أسماء من هاجروا فى الفوج الثانى، وقد أدى هذا «الدمج» إلى الاعتقاد الخاطئ بأن عودة أبى عبيدة من الحبشة كانت بمناسبة ما وصل الحبشة من خبر خاطئ عن إسلام قريش[2]. ولم يلاحظ من اعتقدوا ذلك، أن أبا عبيدة لم يكن أصلًا فى الفوج الأول، ولم يذكر اسمه ضمن المهاجرين الذين أوردهم ابن هشام وغيره بأسمائهم، وأنه لم يهاجر إلى الحبشة إلاّ فى الفوج الثانى مع جعفر بن أبى طالب ومن ذكرنا بعض أسمائهم سلفًا، ومن ثم فإن الصحيح أن عودته إلى مكة، لم يكن لها صلة بما وصل من نبأ خاطئ إلى الفوج الأول عن إسلام قريش، وإنما عاد أبو عبيدة إلى مكة بعد هجرته منها مع الفوج الثانى، حيث بقى بمكة ـ حسب الراجح ـ إلى أن هاجر منها إلى المدينة، قبيل قليل من هجرة الرسول عليه الصلاة والسلام وأبى بكر إليها كما قدمنا.

على أننا نريد ألا نترك أمر هجرة أبى عبيدة إلى الحبشة، دون أن نلتفت إلى أنها كانت أقرب إلى التساند بطبع النجدة المطبوع عليها. فلم يرد فى قصص ما ألم بالمسلمين من تعذيب قريش ـ أن أبا عبيدة تعرض شخصيًا لمحنة التعذيب. فلا عذبه طواغيت قريش أو تعرضوا له مع أنه لم يكن من بطونها

(١) سيرة النبى. ابن هشام. ط دار الشعب ١/٣٥٣.

(٢) سيرة النبى. ابن هشام. ط دار الشعب ١/٣٨٨ ـ ٣٩١.

المنيعة وإن التقى نسبه مع الرسول عليه السلام فى فهر، ولا روى أن أباه عذبه أو غلظ له، مما يرجح أنه مات قبل ذلك، وأن قصة تعقبه لابنه أبى عبيدة فى بدر واضطرار أبى عبيدة إلى مواجهته مواجهة انتهت بقتله ـ هى من انتحال الرواة الذين وقعت رواياتهم فى اضطراب شديد سنعود فى حينه إليه، ولا تتفق رواياتهم مع ما عرف عن أبى عبيدة من لين ورقة لأهله كانا كفيلين بأن يتهرب ـ على الأقل ـ من قتل أبيه بيده!

ولكن يبقى أن أيًا من المصادر، لم تورد أن أبا عبيدة تعرض لبطش أو تعذيب أو إيذاء طواغيت قريش، وتكون هجرته – والأمر كذلك مع المهاجرين إلى الحبشة – أقرب إلى التساند والمؤانسة مع بنى دينه فى هجرتهم إلى الأرض الغريبة، يصادق على ذلك كثرة مشاهد النجدة التى تقدمت فى بيان مناقبه، وهى التى دعته إلى أن يراجع عمر بن الخطاب فى عدوله عن دخول الشام لطاعون عمواس، ويقول له: «أفرارًا من قدر الله يا عمر؟».. إلى آخر القصة، ولكن صورة هذا التساند والتكافل تبدو واضحة كفلق الصبح حين أبى أن يترك جنده بالشام ويلحق بالمدينة تلبية لأمر أمير المؤمنين عمر الذى خشى عليه ـ لمنزلته الكبيرة فى الإسلام ـ من وباء الطاعون، فكتب إلى عمر يبدى له أنه فى جند الله من المسلمين، لا يرغب بنفسه عنهم، ويطلب إلى أمير المؤمنين أن يحله من عزمته، مؤثرًا أن يبقى بين جنوده، حتى بكى عمر حين استقبل الكتاب، فلما سُئل: أمات أبو عبيدة؟ قال: لا! وكأن قد. وهو ما حدث حين مات هذا الغياث الأمين بالطاعون وسط جنوده بالشام الذين آثر أن يبقى وسطهم ويتساند معهم.

هاجر أبو عبيدة من مكة إلى الحبشة، دون أن يوجد ما يضطره شخصيًا إلى الهجرة، وإنما هاجر انسياقًا مع طبعه وشيمه، وتساندًا مع إخوته المسلمين فى هجرتهم إلى هذه الأرض الغريبة.

وخلا ذلك، فإن المُراجع لمروياته عن النبى، وحسن رِأيه ﷺ فيه، يدرك أنه ظل ملاصقًا له فى مكة، يهتدى بهديه، ويغترف من نبعه ما أهله للدور العظيم

الذى أداه فى رحاب الإسلام منذ انتقلت الدعوة إلى المدينة، وظل يؤديه بعد وفاة النبى عليه السلام، وإلى أن توفى هو بالشام فى السنة الثامنة عشرة للهجرة.

* * *

obeikandl.com

المجاهد فى رحاب النبوة

أصدق وصف يوصف به أبو عبيدة، إلى جوار«أمين الأمة»، أنه من كبار المجاهدين فى الإسلام، بدأ جهاده فى سبيل الدعوة منذ أسلم ضمن العشرة الأوائل الذين أسلموا وبايعوا الرسول قبل الدخول إلى بيت الأرقم بن أبى الأرقم. وكان مجرد دخول الإسلام فى ذلك الوقت، جالبًا للمخاطر التى تثيرها عداوة قريش التى شنفت للدعوة وللرسول ﷺ وكل من يتجرأ على الإيمان بها.. وقد مر بنا أن صنوف العذاب الرهيب التى لاحقت العبيد والأشراف، وتحملها المسلمون فى صبر وجلد، دعت النبى ﷺ إلى أن يشير على أصحابه بالهجرة إلى الحبشة، وكانت هذه الهجرة، بترك البلد والديار والأهل، والعيش فى الأرض الغريبة على الجانب الآخر من البحر الذى عبره المهاجرون لأول مرة، كانت معاناة تحملها المهاجرون، وكان من بينهم المجاهد أبو عبيدة بن الجراح، الذى هاجر فى الفوج الثانى البالغ ٨٣ رجلاً.. وتحملوا إلى جوار الغربة، مؤامرات قريش التى لاحقتهم هناك، بسفارة عمرو بن العاص، وعبد الله بن أبى ربيعة إلى الحبشة، لتأليب البطارقة والنجاشى عليهم، وحض النجاشى على طردهم من بلاده، لولا سماعه للمسلمين، واقتناعه بفساد مزاعم سفيرى قريش إليه.

كانت حياة المسلمين فى مكة جهادًا ومجاهدة لمواجهة طغيان قريش وإيذائها، وكانت فى المهجر جهادًا ومجاهدة للغربة والانقطاع عن الوطن والديار.. احتملها أبو عبيدة كما احتملها غيره من المسلمين.

وبانتقال المسلمين بالهجرة إلى المدينة، بدأت مرحلة أخرى من الجهاد والمجاهدة، ببناء حياة جديدة بعد أن ترك المهاجرون وراءهم دورهم وأموالهم وهاجروا بأنفسهم إلى الله. ولكن اليهود كانوا بانتظارهم بمؤامراتهم ودسائسهم فى المدينة، برغم العهد الذى أعطاه الرسول ﷺ إليهم، بينما قريش ومن والاها

من العرب من خلفهم. وبدأت مؤامرات اليهود ودسهم من اليوم الأول لوصول الرسول عليه السلام المدينة، ويقول الرواة: إن الحصين الذى أسلم وعرف باسم عبد الله بن سلام، كشف للرسول حقيقة قوم اليهود، حين سألهم عليه السلام عن الحصين قبل أن يعرفوا أنه أسلم، فقالوا: إنه من خيارهم وأعلمهم، فلما خرج إليهم الحصين، وأعلن لهم إسلامه، عادوا فشجبوه بالكذب ونعتوه بأنه من أشر قومه وابن أشرهم، فقال ابن سلام للنبى: «ألم أخبرك يا رسول الله بأنهم قوم بهت.. أهل غدر وكذب وفجور»؟!

وبرغم أن الرسول ﷺ سالمهم ووادعهم، فإنهم جعلوا يتآمرون عليه وعلى المسلمين، وجعل أحبارهم يجادلون الأوس والخزرج عسى أن ينجحوا فى إثنائهم عن مناصرة الدعوة، وفى بعض ما يدبرون، نزلت الآيتان: ٨٩، ٩٠ من سورة البقرة.، وذهب أحبارهم يريدون تعجيز النبى بسؤاله عن خمسة أشياء قدروا أنه لن يستطيع الإجابة عنها، فلما أجابهم وأسقط فى يديهم، افتعلوا أن جبريل عدوهم فهو ينزل بالشدة والغلظة، وأن محمدًا لو قال ميكائيل الذى ينزل بالرحمة والمطر لاتبعوه!

وتتابعت .مؤامرات اليهود ودسائسهم، واتفقوا للتخلص من موادعة الرسول وعهده لهم، أن يواعدوه جهرًا، ويكيدوا له سرًا.. واستمرءوا حملات ظاهرها البراءة وباطنها النفاق والتنكيل، وجعلوا يأتمرون لتحريك الثارات بين الأوس والخزرج بتذكيرهم بيوم بعاث الذى كانوا قد اقتتلوا فيه ـ فى الجاهلية ـ قتالاً شديدًا، وكاد اليهود يفلحوا، وتنادى الخزرجيون والأوسيون بالسلاح، لولا أن حال النبى ﷺ بينهم وبين الاشتباك. وقال لهم: «يا معشر المسلمين الله الله! أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم؟! بعد إذ هداكم الله للإسلام وأكرمكم به وقطع به عنكم أمر الجاهلية.. واستنقذكم به من الكفر، وألف بينكم؟! ترجعون إلى ما كنتم عليه كفارًا»؟! ! يومها نزلت الآيات: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ

وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٠ - ١٠٣]، ووقى الله المسلمين شر هذه الفتنة التى أشعلها اليهود.

لم يتوقف اليهود عن لجاجتهم وتآمرهم، ووجدوا فى المنافقين بالمدينة معينًا على ما يدبرونه للإسلام، وجعل حُيَىْ بن أخطب وشقيقه أبو ياسر يجدَّان فى تخذيل الناس وردهم عن الإسلام، وطفق شاعرهم كعب بن الأشرف يرصف أشعارًا فى هجاء النبى ﷺ، وأخذوا يحرضون الأنصار على المهاجرين، ويستعينون بالمنافقين ليندسوا فى المسجد للعبث والتشويش على المسلمين.. ولكن المسلمين صمدوا لكل هذه الأفاعيل، وجاهدوا اليهود والمنافقين بالصبر والحلم.. باقين على عهدهم فى حسن الجوار ومعاملة الجميع بمن فيهم اليهود بالحسنى.

على أن ما واجهه المسلمون بالمدينة، من تحالف اليهود والمنافقين عليهم، وافتعال الأسباب لتخذيلهم، كان والمسلمون مهددين من قريش ومن والاها من خلفهم، يعانون ولا شك فى مجاهدتهم، من تجرؤ قريش عليهم بعد أن ألجأتهم إلى الهجرة تاركين ديارهم ومتاعهم وأموالهم. وأنه من ثم لم يكن للمسلمين غناء إزاء هذا المحيط المعادى لهم، من كفالة الأسباب لبث الاحترام لهم وعدم استضعاف شأنهم، حتى لا يزداد تغول هؤلاء المتغولين عليهم، وحتى يُتاح للدعوة أن تصل إلى الناس بلا خوف أو رعب من تبعات الإيمان بالإسلام.

وهذا فى اعتقادى هو سبب خروج السرايا من المدينة فى العام الأول للهجرة، فقلة تعداد الخارجين فى هذه السرايا، يدل على أنها كانت فى الغالب لإثبات الوجود، وبث الهيبة. فبعثة حمزة بن عبد المطلب إلى شاطئ البحر من ناحية

العيص، كانت فى ثلاثين راكبًا من المهاجرين، وهى وإن التقت مصادفة أبا جهل فى ثلاثمائة راكب من أهل مكة، فإنه لم يحدث بين الفريقين قتال. وبعثة عبيدة بن الحارث إلى ماء بالحجاز بوادى راغب، كانت فى ستين راكبًا من المهاجرين، وهى وإن صادفت جمعًا من قريش يزيد على المائتين على رأسهم أبو سفيان، فإن البعثة انصرفت بغير قتال، إلا ما روى من أن سعد بن أبى وقاص رمى يومئذ بسهم فَعُد أول من رمى بسهم فى الإسلام. وبعثة سعد ابن أبى وقاص إلى أرض الحجاز، كانت فى ثمانية من المهاجرين على رواية، وفى عشرين منهم على رواية أخرى، وقد عادت بدورها دون قتال.

وهذا يحمل على الاعتقاد بأن خروج هذه السرايا قليلة العدد، لم يكن إلا بهدف إثبات الوجود وبث الهيبة ورد الكفار من قريش وغيرها عن الاجتراء على المسلمين بالمدينة، ومهاجمتهم المسلمين مدفوعين بتآمرات اليهود والمنافقين، وهى أخبار لم تكن بمعزل عن قريش التى كانت لها صلات وسفارات مع يهود المدينة.

وتروى الروايات، أن أول خروج للنبى ﷺ بنفسه، كان بصفر أول السنة الثانية للهجرة، أى على رأس اثنى عشر شهرًا من مقدمه إلى المدينة فى ربيع أول من العام الأول للهجرة، وقيل إنه سار إلى «الأبواء» حتى بلغ «ودَّان»، وإنه كان يريد قريشا وبنى ضمرة، فلم يلاق قريشًا، ووادع بنى ضمرة على ألا يغزوه ولا يغزوهم، وألا يكثروا عليه جَمْعًا، ولا يعينوا عليه عدوًا، وكتب بينه وبينهم كتابًا بذلك. وجاء بالكتاب، بعد البسملة: «هذا كتاب من محمد رسول الله لبنى ضمرة بأنهم آمنون على أموالهم وأنفسهم، وأن لهم النصرة على من رامهم إلا أن يحاربوا فى دين الله ما بلّ بحرٌ صوفةً (أى ما دام فى البحر ما يبل الصوفة). وأن النبى ﷺ إذا دعاهم لنصره أجابوه، عليهم بذلك ذمة الله وذمة رسوله، ولهم النصر على من بَرَّ منهم واتقى».

وورد أنه فى ربيع الأول وقيل ربيع الآخر، على رأس ثلاثة عشر شهرًا من الهجرة، خرج النبى ﷺ فى نحو مائتين من المهاجرين والأنصار إلى «بُواط»،

يحمل لواءه سعد بن أبى وقاص، واستخلف على المدينة سعد بن معاذ، وفاتته قافلة لقريش عليها أمية بن خلف ويحميها مائة محارب، وعاد بلا قتال، وخرج بعد ثلاثة أشهر فى جمادى الآخرة، وقيل الأولى، سنة ٢هـ فى نحو مائتين وخمسين، فبلغوا «العُشَيْرة» ببطن ينْبُع، وأورد الإمام الصالحى الشامى فى سبل الهدى والرشاد فى سيرة خير العباد[1]. ط الأوقاف ـ أن النبى ﷺ أقام فى العُشَيْرة بقية جمادى الأولى، ولياليَ من جمادى الآخرة، ووادع فيها بنى مدلج وحلفاءهم من بنى ضمرة، ورجع إلى المدينة دون أن يلقى كيدًا.

إلَّا أنه ما كاد ﷺ يرجع إلى المدينة، حتى أغار كَرُز بن جابر الفهرى، من المتصلين بمكة وقريش، على سَرْح المدينة ـ أى الإبل والمواشى التى تسرح للرعى، وكانت ترعى بالجَماء ونواحيها، فخرج الرسول ﷺ فى أعقاب هؤلاء المغيرين عن المدينة، واستخلف عليها زيد بن حارثة، وتابع مسيره حتى بلغ واديًا يقال له «سَفَوان» من ناحية بدر، فلم يدركه، وعاد ومن معه دون أن يلقوا كيدًا.

وأنت ترى من قلة تعداد من خرجوا فى هذه السرايا، أن القتال لم يكن بغيتها، وأنها من ثم كانت أقرب إلى إظهار الهيبة وإثبات الوجود، وأنها عادت جميعًا بلا قتال، وأن بعضها نجح فى عقد موادعات مع القبائل المحيطة بالمدينة، كالذى حدث فى «ودَّان» مع بنى ضمرة، وما عُقِدَ مع بنى مدلج وحلفائهم فى «العشَيْرة»، وتتضح حكمة هذه الغاية وأن ذلك كان مطلوبًا لتأمين الإسلام والمسلمين بالمدينة، من الغارة التى شنها كَرُز بن جابر الفهرى على إبل المدينة. وقد كان هذا المغير من المتصلين بمكة وقريش، مما يؤكد أن قريشًا لم تكن بمعزل عن التآمر على المسلمين بمهجرهم، وأن هذا التجرؤ وصل إلى حد الإغارة واستلاب المواشى والإبل التى كانت بمرعى المدينة.

---

(١) سبل الهدى والرشاد ـ ٢٩/٤.

غزوة بدر

على أن هذه الإغارة نبهت المسلمين إلى أن مجاهدة هذه المؤامرات، تستوجب مزيدًا من المجاهدة والجهاد، فلم ترعو قريش، ولم تقنع بخروج المهاجرين تاركين دورهم ومتاعهم وأموالهم من خلفهم فى مكة، ولم يرضهم أن يستمر تقدم الدعوة، وانتشارها حثيثًا فى المدينة وما حولها، بل وفى مكة التى احتجزت قريش فيها بعض من أسلموا ومنعتهم من الهجرة، بل أكرهت بعضهم على الخروج لقتال المسلمين فى بدر. هناك صار قتال هؤلاء الظالمين الذين أخرجوا المسلمين من ديارهم لا لشىء إلَّا أن قالوا ربنا الله. وقد نزل فى ذلك قول الحق جل وعلا: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٣٩ - ٤٠].

وبعد أيام من إخفاق مطاردة المغير كُرز بن جابر الفهرى والمغيرين معه على المدينة، تقاطرت الأنباء عن غيوم تتجمع وتدابير تحاك، فأراد النبى ﷺ أن يطمئن على ما عساه أن يكون جاريًا بين القبائل بزعامة قريش، فانتدب عبد الله بن جحش من رئاب الأسدى، للخروج فى اتجاه مكة فى ثمانية من المهاجرين، حاملاً كتابًا أمره رسول الله ﷺ ألا ينظر فيه إلاّ بعد مسيرة يومين، فلما نظر فيه فى الموعد المضروب، تلا لأصحابه ما فيه، وهو أن يمضى بمن معه حتى ينزل نخلة بين مكة والطائف، ليرصد قريشًا ويتسقط أخبارها، ولم يأمرهم بقتال، وأكد عليه ألاّ يستكره أحدًا على المسير معه، ومضوا جميعًا إلى حيث أمر الرسول، وفى الطريق فات الركب سعد بن أبى وقاص وعتبة بن غزوان بسبب تفقدهما بعير شرد لهما. وفى موضع نخلة، اكتشف عبد الله ابن جحش وبقيه أصحابه عيرًا لقريش عليها عمرو بن الحضرمى، وتناوش

الجانبان، وكان شهر رجب قد حل، وهو من الأشهر الحرم، فضلاً عن أن النبى ﷺ لم يأمرهم بقتال، ولكن جرت الأحداث على غير ما اتفاق، وتبادل الطرفان الرمى بالسهام فأصيب عمرو بن الحضرمى، ووقع عثمان بن عبد الله والحكم بن كيسان فى أسر المسلمين، فلما عادوا إلى المدينة بما حدث، غضب النبى ﷺ غضبًا شديدًا، وقال لعبد الله بن جحش: «ما أمرتكم بقتال فى الشهر الحرام»! وصار عبد الله وصحبه فى كرب شديد، وفى ذلك نزلت الآية ٢١٧ ثم الآية ٢١٨ من سورة البقرة.

وجاءت الأخبار بأن قريشًا أسرت سعد بن أبى وقاص وعتبة بن غزوان، وأرادت افتداء أسيريها، ولكن النبى ﷺ صمم على وصول صاحبيه قبل إطلاق الأسيرين، خشية غدر قريش، فلما وصل سعد وعتبة بعد أن فكت قريش أسرهما فداءً لأسيريها، أطلقهما المسلمون، بيد أن أحدهما: الحكم بن كيسان، تغشاه نور الإيمان، فأسلم واختار الإقامة إلى جوار رسول الله ﷺ فى المدينة.

كانت هذه وما سبقها، مقدمات غزوة بدر، وقيل إن عاتكة بنت عبد المطلب رأت فى المنام رؤيا استعظمت ما رأته فيها من مشاهد، وأوجست خيفة وشرًا من قريش لو علمت بأمرها وما تنبئ عنه، فأرسلت فى طلب أخيها العباس بن عبد المطلب، ولم تروها له إلّا بعد أن عاهدها ألا يفشيها، ولما سمعها طلب إليها هو الآخر أن تكتمها، لأنها إن بلغت قريشًا فستؤذيهم، ولكن العباس عاد فلم يستطع كتمان الرؤيا، وأسرَّ بها إلى الوليد بن عتبة، فانطلق بها الوليد إلى أبى جهل ورهطٍ من قريش، بينما شعر العباس بالندم ولكن بعد فوات الأوان!

ذكرت لك هذه الرؤيا، لأنها وردت بتفاصيلها فى كتب السيرة، وأثارت قريشًا، فتحفزت لبنى هاشم، وفى هذا الجو المتوتر نظر المكيون فشاهدوا ضمضم ابن عمرو الغفارى، واقفًا على بعيره ببطن الوادى وقد جَدَّعه وحوَّل رَحْله، وشق قميصه، ينادى: يا معشر قريش يا آل لؤى بن غالب، اللّطيمة اللّطيمة، أموالكم

مع أبى سفيان قد عرض لها محمد وأصحابه. لا أرى أن تدركوها. الغوث الغوث، ما أرى أن تدركوها!

وأعود إلى واقعة سرية عبد الله بن جحش فى نخلة، أو ما أطلق عليه بعض الرواة والمؤرخين اسم: «بدر الأولى».. كانت هذه الواقعة مقدمة لغزوة بدر الكبرى التى وقعت فى رمضان للسنة الثانية من الهجرة.. فقد نزلت فى واقعة نخلة ـ الآية ٢١٧ من سورة البقرة، تؤكد النهى عن القتال فى الشهر الحرام.. ثم تصرح بالإثم الكبير الذى وقع بإخراج أهل المسجد الحرام.. تعنى المهاجرين ـ عنوة من بلدهم، وأن هذا الإخراج أكبرعند الله، وأن الفتنة أشد من القتل. وأن الكفار لا يزالون يفتنون المسلمين حتى يردوهم عن دينهم إن استطاعوا، تقول الآية الكريمة: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [البقرة: ٢١٧].

أما مقدمات أحداث بدر، فقد رأيت ما كان من صياح ضمضم بن عمرو الغفارى فى الصورة المهيجة التى ظهر بها فى بطن الوادى، واستبان أن أبا سفيان هو الذى حرضه على ذلك وبعث به بعد أن بلغه خروج المسلمين من المدينة، وخاف أن يعترضوه فى أوبته بعد أن ربحت تجارته بالشام. فاستأجر ضمضمًا وبعثه مسرعًا إلى مكة ليستنفر قريشًا.. وسرعان ما اجتمع إليه كبار القرشيين بمنتداهم بظاهر الكعبة، ولما سأله أبو جهل عمن شق قميصه من الأمام والخلف، وقطع أذنى بعيره وجدع أنفه، أجابه بأن أبا سفيان أمره بأن يفعل ذلك وأن يلحق بقريش على هذا الحال ليستنجدها لتخرج إليه.. فسرت الحمية فى كبار القريشيين وفى مقدمتهم أبو جهل وسهيل بن عمرو وأمية

ابن أبى الصلت وحنظلة بن أبى سفيان وزمعة بن الأسود وغيرهم، بينما استعظم آخرون أن يجرؤ محمد على التعرض لقافلتهم، واستنكروا حدوث ذلك، وطلب بعضهم الاستيثاق مما يقوله ضمضم، حتى سرى بين بعض القريشيين من يقول: «واللات والعزى لقد آذيناهم وأخرجناهم وأخذ من أخذ ما خلفوه وراءهم جبرًا من أموالهم.. لم يكفنا أن أجبرناهم على ترك بلدهم وبيوتهم، ولكن لاحقناهم وألبنا وضيقنا عليهم!.. وهم هناك فى فقر وعوز وضنك.. يكادون يتكففون الناس بينما أموالهم محتجنة هنا فى مكة»!

وسرعان ما سخر العتاة واستهزأوا بمن مالوا إلى السلم ، واقترح آخرون أن يستقسموا بالأزلام، فانبرى ضمضم معترضًا بأن أبا سفيان أوصاه: إذ قدمت على قريش فقل لهم لا تستقسموا بالأزلام!

وبعد أن كثر الهرج والمرج، غلب تحريض المحرضين على الخروج: وانطلق القرشيون يتجهزون لذلك، ويعايرون من يتباطأ، حتى ذهب عقبة بن أبى معيط يعرّض بأمية بن خلف ويهزأ به فى صحن الكعبة، لأنه أزمع القعود لكبر سنه وثقل وزنه وضخامة حجمه، فحمل إليه عقبة مجمرة فيها نار ومجْمَر (بخور)، ووضعها بين يدى أمية وجعل يقول له: يا أبا على استبخر (تبخر!) فإنما أنت من النساء! فكان أن أكره أمية إكراهًا على الخروج وهو يقول لعقبة وأبى جهل الذى انضم فى معايرته له: قبحكما الله.. وقبح ما جئتما به!!

خرجت قريش، إلّا أن أبا لهب قد بعث مكانه العاص أخا أبى جهل، ولم يخرج أحد من بنى عدى بن كعب.. وقيل إن هناك من ذهبوا إلى أبى لهب يستنفرونه للخروج، ويلحون عليه، حتى اضطر لانتداب العاص بن هشام ـ وكان مدينًا له بأربعة آلاف درهم، أسقطها عنه ليخرج مع قريش بدلا منه[1].

ويقال إن رهطًا من قريش على رأسهم أمية بن خلف وعتبة بن ربيعة، وأخوه شيبة، وحكيم بن حزام، استقسموا بالأزلام ، فخرج القدح الناهى عن الخروج،

(١) تاريخ الإسلام (المغازى) للذهبى. ص٣١.

فأجمعوا أمرهم على البقاء. لولا أن لحق بهم أبو جهل معترضًا ومستنفرًا. بينما تكفل سهيل بن عمرو بأمر زمعة بن الأسود قائلا له: امض عنك أيها الرجل، ما أكذب من هذه القداح!

ويقال إن بعض القرشيين قال لأبى جهل: «يا أبا الحكم، إنك تعلم ما بيننا وبين بنى بكر بن عبد مَنَاةَ بن كنانة من دماء.. وإنا نخشى إذا خرجنا لقتال محمد أن يأتونا من خلفنا! وانضم إلى هذا الرأى عتبة بن ربيعة، فجعل يقول: «يا معشر قريش، إنكم وإن ظفرتم بالذى تريدون، فإنا لا نأمن على من تخلف. إنما تخلف نساء وذرية، ومن لا قدرة له. فارتأوا آراءكم»!

ذكرت لك تفاصيل بعض ما جرى بين قريش، التى تفرقت أشتاتًا، فخرج بعض من خرجوا ـ متأففين على مضض، وآخرون تشدهم أثقال إلى الخلف، إلاّ أنهم لم يعد أمامهم إلاّ ما ليس منه بد، وهو الخروج الذى لا حيلة لهم فى تفاديه إزاء تحريض أبى جهل ومن جرى مجراه!!

كان هذا هو الفارق بين القرشيين، والمسلمين الذين خرجوا بعقيدة قوامها الإيمان والتوحيد واليقين، والثقة بالله وبالحق الذى هم عليه، وبالظلم الذى تعرضوا له حتى أكرهوا إكراهًا ـ بالطغيان والجبروت ـ على ترك بلدهم وديارهم ومتاعهم وأموالهم. والانتقال مكرهين إلى المدينة التى لاقاهم أهلها من الأنصار بالترحاب والإيناس والعون والمدد والمساندة، على نقيض ما فعله بهم قومهم وبنو جلدتهم من قريش، وبنو بلدهم من أبناء مكة الذين تظاهروا مع كفار قريش عليهم!

يقول الرواة: إن رسول الله ﷺ خرج والمسلمون من المدينة لثمان خلون من رمضان من السنة الثانية للهجرة (تقابل نحو ٣ أو ٤ مارس سنة ٦٢٤ م) فى نحو خمسة وثلاثمائة رجل.. منهم ٨٣ من المهاجرين، فيهم صاحبنا أبو عبيدة بن الجراح الذى أجمعت الروايات أنه حضر المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، و٢١٢ من الأنصار (٦١ من الأوس و ١٥١ من الخزرج)، وليس معهم سوى سبعين بعيرًا يتبادلون الركوب عليها وسوى ثلاثة أو أربعة أفراس.

لم يكن فى المسلمين الذين خرجوا، حَدَثٌ ولا مريض ولا منافق ولا مزعزع، فقد كفى المنافقون أنفسهم بالقعود، ورد النبى ﷺ من استصغر سنه من أبناء المسلمين، لم يفلت منهم سوى عُمَيْر بن أبى وقاص الذى رقَّ النبى لبكائه فأجازه.. وأراد من يدعى خُبَيب بن إسان، وكان ذا بأس ونجدة، أن يخرج مع المسلمين، ولم يكن قد أسلم، بيد أن النبى ﷺ رده وقال له: «لا يصحبنا إلا من كان على ديننا».. فيؤخذ الرجل بهذا النهج النبوى. فيسلم ويشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا عبده ورسوله، وخرج مسلمًا مع المسلمين. ولم يترك رسول الله ﷺ وراءه بالمدينة، سوى عمرو بن أم مكتوم للصلاة بالناس، وردّ أبا لبابة بن عبد المنذر من الروحاء ليكون عاملاً على المدينة، وأذن لعثمان بن عفان بالبقاء ليمرِّض ويرعى زوجته رقية بنت محمد ﷺ التى كانت مريضة مرضًا شديدًا، توفيت به ودفنت يوم وصول الرسول ﷺ والمسلمين عائدين من بدر.

مرّ المسلمون فى رحلتهم على بئر أبى عنبة بجنوب المدينة، ثم ببدر السقيا حيث استسقوا، ثم مرُّوا عبر الصحراء على «ذى الحليفة» ثم على «تُربان» فنزلوا عند «سجسج» ـ وهو بئر الروحاء، ثم ارتحلوا عنها حتى إذا كانوا بالمنصرف (المسيجيد) ـ تركوا طريق مكة بيسارهم، وسلكوا ذات اليمين على «النازية» يريدون بدرًا، حيث نزلوا بعد مضيق «الصفراء» (قرية صغيرة بين جبلين) بوادى «ذِفران».. وهناك أتت العيون بأن قريشا قد خرجت عن بكرة أبيها، بقضها وقضيضها لقتال النبى والمسلمين، وأن عدتهم أضعاف عدد المسلمين.

هنالك جمع الرسول ﷺ المسلمين ليروا رأيهم، فقال عمر بن الخطاب: «يا رسول الله، إنها قريش وعزها، والله ما ذلت منذ عزت، ولا أمنت منذ كفرت، والله لتقابلنك، فأهب لذلك أهبته، وأعد لذلك عدته».

وقال المقداد بن عمرو، من الأنصار: «يا رسول الله امض لما أراك الله فنحن معك، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون.. ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكم مقاتلون، فوالذى

بعثك بالحق لو سرت بنا إلى بَرَك «الغِمَاد» (موضع باليمن) لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه».

ونهض سعد بن معاذ، زعيم الأنصار، فقال: «يا رسول الله، قد آمنا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما أردت فنحن معك، فوالذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدًا.. إنَّا لصُبُر فى الحرب، صُدَق فى اللقاء، فنحن عن يمينك وشمالك، وبين يديك وخلفك».

مضى الرسول ﷺ بأصحابه راضيًا وهو يقول لهم: «إن الله تعالى قد وعدنى إحدى الطائفتين.. والله لكأنى أنظر الآن إلى مصارع القوم!».. تابع المسلمون مسيرتهم فى اتجاه بدر، ممعنين فى البعد عن طريق المدينة المعتدل المعتاد.. فسلكوا «ثنايا الأصافر»، ومنها إلى بلد يقال لها «الدبَّة»، فيتركون «الحَنَّان» بيمين ـ وهو كثيب عظيم كالجبل ـ وينزلون على مقربة من بدر.

على ماء بدر كان هؤلاء المجاهدون، وعلى رأسهم الهادى البشير ﷺ، وفيهم صاحبنا أبو عبيدة بن الجراح مع من خرجوا من المهاجرين والأنصار، قد قطعوا مسافة تصل إلى قرابة مائتى كيلو متر أخذًا فى الاعتبار الطرق المتعرجة التى سلكوها لتجنب الطريق المعتدل المعتاد، قطعوا هذه المسيرة، بصحراء قاحلة، حاملين معهم مؤنهم القليلة، سائرين على الأقدام فى معظم الطريق، فقد كانت الرواحل التى يتبادلونها خُمْس عددهم، فقطع الواحد منهم أربعة أخماس هذه المسافة ترجلا على قدميه، تنغرزان فى رمال الصحراء بعد أن آثروا ترك الطريق المعتدل المعتاد، وخاضوا فى الرمال بعيدا حتى لا تكتشف قريش طريقهم، ولا تأتيهم غيلة من خلفهم.. ويجدر بنا أن نتخيل هذه الرحلة، لنعرف إلى أى مدى كان المسير نفسه جهادًا ومجاهدة، وكم كان مقدار العناء الذى جالده هؤلاء وقد تركوا فراشهم (الخشن) فى المدينة بعد أن أجبروا على ترك ديارهم فى مكة،

وانطلقوا مع نبيهم ﷺ فى هذه المفازات، تحت وهج الشمس الحارقة وظلام الليل إليهم، لا يبتغون شيئًا من متاع الدنيا ولا بهرجها، وإنما تمتلئ قلوبهم بالإيمان الذى ملأ حناياهم، ووحدهم حتى صاروا جميعًا بنعمة الله إخوانًا، الجميع على قلب رجل واحد، وإلى غاية واحدة.

لم يكد هؤلاء المجاهدون يحطون رحالهم بعد هذه الرحلة الطويلة الشاقة، حتى استدعى النبى ﷺ استدعى إليه على بن أبى طالب، والزبير بن العوام، وسعد بن أبى وقاص وبعثهم لتنطس الأخبار، وقد عادوا إلى النبى بغلامين صادفوهما وسألوهما فظنوا أنهما يراوغان ويكذبان عليهم، ولكن النبى ﷺ أدرك بفراسته أنهما صدقا فيما أورياه، فسألهما أن يخبراه عن قريش، فأخبراه أنها وراء الكثيب (العقنقل) بالعدوة القصوى، وأن عددهم كثير، فلما سألهم ﷺ عمّا ينحرون.. أخبروه أنهم ينحرون فى اليوم تسعًا ثم عشرًا فى اليوم التالى، فاستنتج النبى ﷺ من ذلك أن قريشًا بين التسعمائة والألف، وسأل الغلامين عمّن فيهم من أشراف قريش، فأخبراه أن فيهم أبا الحكم عمرو بن هشام (أبا جهل)، وعتبة ابن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأبا البُخْترى بن هشام، وحكيم بن حزام، ونوفل ابن خويلد، والحارث بن عامر بن نوفل، وطعيمة بن عدى بن نوفل، والنَّضر ابن الحارث، وزمعة بن الأسود، وأمية بن خلف، ونُبَيهًا ومنبهًا ابنى الحجاج، وسهيل بن عمرو، وعمرو بن عبد ود.

فالتفت النبى ﷺ قائلاً لأصحابه: «هذه مكة قد ألقت إليكم بفلذات كبدها»!

ويقول الرواة: إنه فى الجانب الآخر، بمضارب قريش شمال الحجاز إلى الجنوب من بدر، استقر رأى عتبة وشيبة ابنى ربيعة، على الإياب، بعد أن استعرضا الموقف، وتذكرا رؤيا عاتكة، ولم يرق لهما أن يقاتلا بنى جلدتهما، فلهما أرحام، وقرابة قريبة ليست لأبى جهل الذى يتزعم التحريض على قتال المسلمين.

ولم يكد أبو جهل يثنيهما عما أرادا، حتى شهدت مضارب قريش اضطرابًا آخر، فقد وقف جُهَيْم بن الصلت مناديًا فى وجل وهلع، ليحكى ما رآه فى المنام

من أن مناديًا أقبل ومعه بعير ينادى بأنه قُتل عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأبو الحكم بن هشام، وأمية بن خلف، وآخرون من قريش.. وأنه رآه يضرب فى لبّة بعيره (موضع الحبل بعنق البعير) ثم أرسله فى العسكر. فما بقى خباء من أخبية قريش إلا أصابه نُضَح (تلطيخ) من دمه!

تفشى الاضطراب بين القرشيين من هذه الرؤيا المشئومة التى صاح بها جُهَيْم، وذهبت بهم الظنون كل مذهب، وثار بينهم الجدل وتفرقوا أشتاتًا، حتى عاد عتبة وشيبة ابنا ربيعة إلى عزمهما الرجوع وقالا لأبى جهل: هلكت والله، وأهلكت قومك!.. ثم عادا فاستسلما على مضض، تحت الضغوط لتصاريف الأقدار!

• ويقول الرواة: إن الرسول ﷺ، قد نزل بأصحابه فى بدر بأقرب ماء إلى يثرب، فتقدم إليه الحُباب بن المنذر الأنصارى، وكان عليمًا ببدر وآبارها، فسأله: أرأيت إلى هذا المنزل؟ أمنزل أنزلكه الله فليس لنا أن نتقدم ـ أو نتأخر ـ عنه؟ أم هو الرأى والحرب والمكيدة؟ فقال ﷺ: بل هو الرأى والحرب والمكيدة. فأشار على النبى بالانتقال إلى أدنى بئر إلى القوم، وماؤها عذب وكثير لا ينزح، وأشار بأن يبنوا عليها حوضًا ليضمنوا شرب الماء، بعد أن منعته قريش عنهم، فأخذ النبى عليه السلام بمشورته ودعا له، ونهض بالناس إلى حيث أشار.

وأورد الإمام محمد بن يوسف الصالحى الشامى فى سبل الهدى والرشاد فى سيرة خير العباد، المعروفة بالسيرة الحلبية ـ أورد (٥٣/٤) عن محمد بن عمر الأَسلمىّ، والبلاذرى، وصاحب الإمتاع: أن قريشًا لما نزلت، بعث رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب ـ برسالة مسالمة تقترح أن يرجع الفريقان بغير قتال. فقال حكيم بن حزام لقومه: قد عرض نصحًا فاقبلوه، فو الله لا تنتصرون عليه بعدما عرض من النصح، فاعترض أبو جهل، وقال مهددًا ومحرضًا: والله لا نرجع بعد أن مكننا الله منهم.

ويقال: إن قريشًا بعثت عُمَيْر بن وهب الجُمَحى ـ وأسلم بعد ذلك ـ ليستطلع خبر المسلمين، فجاءهم بأنهم نحو ثلاثمائة رجل، يزيدون قليلاً أو ينقصون،

ثم ذهب ثانية وعاد ليضيف أنهم لا كمين لهم ولا مورد، ولكنهم ليس لهم منعة ولا ملجأ إلاّ سيوفهم، ويرى أنه لن يموت منهم رجل قبل أن يَقْتُلَ رجلاً منهم.

تجدد حينذاك ما كان قد نصح به الحكماء، لاسيما بعد أن وصلت رسالة من أبى سفيان يدعو فيها إلى العودة بعد أن وصل بقافلته سليمًا إلى مكة، ويقال إن حكيم بن حزام قد تحدث فى ذلك إلى عتبة بن ربيعة، وحضه أن يتدخل بحكمته باعتباره كبير قريش وسيدها، ليتحمل أمر حليفه عمرو بن الحضرمى الذى قتل فى بعثة عبد الله بن جحش إلى نخل، وأن يذكر ذلك لأبى جهل، وكان القوم يخافون من اندفاعه وحدته ورميه إياهم بالخوف والجبن، بيد أن ذلك لم يمنع عتبة من أن يخطب فى قريش، محذرًا إياهم من أنهم لن يصنعوا شيئا بلقاء محمد وصحبه، وقال لهم: «والله لئن أصبتموه لا يزال الرجل منكم ينظر فى وجه رجل قتل ابن عمه أو ابن خاله أو رجلًا من عشيرته. فارجعوا وخلوا بين محمد وسائر العرب، فإن أصابوه فذلك الذى أردتم، وإن كان غير ذلك لم نتعرض منه لما تكرهون»!

بيد أن أبا جهل استشاط غضبًا عندما بلغته مقالة عتبة، ودعا إليه عامر ابن الحضرمى شقيق عمرو بن الحضرمى، واستفزه وحرضه على عتبة قائلاً: «هذا حليفك يريد أن يرجع بالناس وقد رأيت ثأرك بعينك، فقم فانشد مقتل أخيك». فقام عامر يصرخ: واعمراه! وجعل يكررها حتى لم يعد من القتال مفر، وأعجل من صفوف قريش: الأسود بن عبد الأسد المخزومى، واندفع إلى صفوف المسلمين يريد أن يهدم الحوض الذى بنوه على الماء، فعاجله حمزة بن عبد المطلب بضربة ثم أخرى أجهزت عليه دون الحوض، وبدأ القتال بخروج عتبة بن ربيعة ـ ربما لدفع تهمة الجبن التى رماه بها أبو جهل ـ بين أخيه شيبة، وابنه الوليد، ودعا إلى المبارزة، فلما خرج إليهم أكفاؤهم فتية من أبناء المدينة، هم معاذ وعوف ـ ابنا الحارث، وأمهما عفراء، وعبد الله بن رواحة، اعترض عتبة وقال لهم: ما لنا بكم من حاجة إنما نريد قومنا. ونادوا أن يخرج إليهم أكفاؤهم من قومهم،

فخرج إليهم حمزة بن عبد المطلب، وعلى بن أبى طالب. وعبيدة بن الحارث، ولم يمهل حمزة شيبة ولا أمهل علىٌّ الوليد. فما لبثا أن أجهزا عليهما فى كرة واحدة، ثم أعانا عبيدة بن الحارث وقد ثبت له عتبة، فلما رأت قريش ما لحق بثلاثتهم، تزاحف الناس، والتقى الجمعان صبيحة الجمعة لسبع عشرة خلت من شهر رمضان من السنة الثانية للهجرة (نحو ١٢ أو ١٣ مارس ٦٢٤م).

ليس من أغراض هذا الكتاب، أن أروى لك تفاصيل موقعة بدر. ولم أذكر تفاصيل بعض مقدماتها، إلّا لأنها الغزوة الأولى التى يجدر أن نتعرف أسبابها من مقدماتها باعتبارها منعطفًا جديدًا فى مواجهة الدعوة الإسلامية لصد طغيان قريش ومن والاها من الكفار، وعنيت بذكر أسماء أشراف قريش الذين حركوا الأحداث وسيروها وانغمسوا فيها، لأناقش من واقع ذلك قصة جهاد أبى عبيدة بن الجراح وبلائه العظيم فيها. والتى أوردت مشهدًا توقفت أمامه طويلاً، يرفضه عقلى ويأباه ما عاينته من أخلاقيات ورفق ولين أبى عبيدة، وبره بأهله، وأنه يصعب ـ برغم صدق جهاده، وشدته على الكافرين، أن يكون قد قَتَلَ بيده أباه يوم بدر.. كما زعم بعض الرواة.

المجمع عليه أن باحة بدر شهدت صورة عظيمة من صور الجهاد وصدق البلاء، سطر فيها المهاجرون والأنصار بطولات تجل على أى وصف، لم يتناء عنها رسول الله ﷺ، مع أن أصحابه أرادوا تجنيبه المخاطر محافظةً على الدعوة إنْ أصابه شىء، وبنى له سعد بن معاذ عريشًا ليكون فيه، بيد أنه عليه الصلاة والسلام كان فى طليعة المجاهدين، ووصف الإمام على ذلك فقال رضى الله عنه: «لما كان يوم بدر وحضر الناس، رأينا رسول الله ﷺ، فما كان منا أحدٌ أقرب إلى المشركين منه، وكان أشد الناس يومئذ بأسًا».

هذه البطولة تنبأ بها عُمَير بن وهب، حين وصف لقريش حال المسلمين بعد أن أرسلته لتقصى أخبارهم، فعاد يقول لقريش إنه رأى: «البلايا تحمل المنايا، نواضح يثرب، تحمل الموت الناقع، قوم ليست لهم منعة ولا ملجأ إلّا سيوفهم..

والله ما أرى أن يُقتل منهم رجلٌ حتى يقتل منكم رجلاً، فإذا أصابوا منكم مثل عددهم فما خير فى العيش بعد ذلك، فروا رأيكم»!

كان عدد القرشيين أكثر من ثلاثة أضعاف عدد المسلمين، ومع ذلك انتصر المسلمون ـ بصدق جهادهم وقوة إيمانهم ـ نصرًا مؤزرًا. تفانوا من أجله، وصدقوا مع الله فصدق سبحانه وعده، استشهد منهم أربعة عشر مجاهدًا، لم يكن الأحياء أقل بطولة ممن استشهدوا ، وفى الحديث: «من سأل الله الشهادة بصدق، أنزله منازل الشهداء وإن مات على فراشه».. تقول الروايات إنه ما إن سمع عُمَيْر بن الحمام كلمات رسول الله ﷺ أن «من يقاتل مقبلاً غير مدبر، فيُقتل، إلا أدخله الله الجنة» ـ ما إن سمع عُمَير هذه الكلمات حتى ألقى ما بيده من تمرات، واندفع إلى القتال يقاتل ببسالة حتى استشهد.. واستشهد من المهاجرين مهجع مولى عمر بن الخطاب، وعبيدة بن الحارث بن عبد المطلب الذى جرح وقطعت ساقه فى المبارزة، ونزف بشدة حتى فاضت روحه بين يدى رسول الله ﷺ، واستشهد عمير بن أبى وقاص أخو سعد، وذو الشّمالين عمير بن عبد عمرو بن فَضْلة، وعاقل بن البُكَير، وصفوان بن بيضاء.

واستشهد من الأنصار ثمانية: عمير بن الحمام، وعوف ومعاذ ابنا الحارث وأمهما عفراء، وحارثة بن سراقة، ويزيد بن الحارث، ورافع بن المُعَلّى الزَّرَقى، وسعد بن خيثمة الأوسى، ومبشّر بن عبد المنذر أخو أبى لبابة.

وقتل من المشركين، سبعون، وأسر مثلهم، منهم أبو جهل، وأمية بن خلف، وعتبة وشيبة ابنا ربيعة، وعبيدة بن سعيد بن العاص وكان يُكنى أبا ذات الكرش، وحنظلة بن أبى سفيان، وعامر والحارث ابنا الحضرمى، وعبيدة والعاص ابنا سعيد بن العاص، وعقبة بن أبى معيط، والحارث بن عامر بن نوفل، وزمعة بن الأسود بن عبد المطلب، وأبو البخترى العاص بن هشام بن الحارث، ونوفل بن خويلد، والنضر بن الحارث وغيرهم، وذكرهم ابن هشام بأسمائهم فى السيرة، وكذا فى السيرة الحلبية للشامى.

وهذه الخسائر التى وقعت فى قريش، والتى بلغت عشرة أضعاف خسائر المسلمين، تروى صدق الجهاد الذى بذله المسلمون.. من استشهدوا ومن عاشوا، حتى انتصروا على جيش عدده وعدته أكثر من ثلاثة أضعافهم، وبلغت مع ذلك خسائره عشرة أضعاف خسائرهم، وقد كثرت الروايات فى بيان بطولة هؤلاء المجاهدين الصناديد من الأنصار والمهاجرة، وذكرت فيمن ذكرت ـ صفحات جهاد أبى عبيدة بن الجراح.. وهو أمر ليس غريبًا عليه، فسيرته كما سوف نرى ملازمة للجهاد، فى حياة الرسول عليه السلام، ومن بعده، وحتى فاضت روح هذا الأمين بالشام فى السنة الثامنة عشرة من الهجرة.

لا ينقص من بطولة هؤلاء المجاهدين، وفيهم أبو عبيدة، المدد الإلهى الذى تحدثت به آيات القرآن المجيد بمناسبة بدر، وإذ لا يتسع المجال هنا لاستعراض كل هذه الآيات، ومن يرد تفصيلها يجدها فى المجلد الثانى من كتابنا: السيرة النبوية ـ فى رحاب التنزيل، إلَّا أنه فى إطار المدد الإلهى نزلت الآيات[1]:

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٩ ـ ١٠].

﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾ [القمر: ٤٤ ـ ٤٦].

﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ [آل عمران: ١٢٤ ـ ١٢٥].

---

(١) السيرة النبوية ـ فى رحاب التنزيل ـ رجائى عطية ـ المجلد الثانى ص ٢٥٥ ـ ٣٠٠.

لقد صدق إيمان هؤلاء المجاهدين، وصدق جهادهم، فصدق الله تعالى وعده. وأمدهم بما تطمئن به قلوبهم ويتقوى يقينهم، وتحصنهم من ألا يدخل الغرور على نفوسهم بعد أن نالوا من الكفار، فَقُتل منهم سبعون وأسر مثلهم. وهو انتصار عظيم كان له أصداؤه المؤثرة فى كل الجزيرة العربية.

* * *

obeikandl.com

هل قتل أبو عبيدة أباه فى بدر؟!

زعم بعض الرواة، وهم ينقلون صورًا من مشاهد جهاد أبى عبيدة بن الجراح وبطولته فى بدر، أنه فى هذه المنجزات ـ قد قتل أباه عبد الله بن الجراح، حين تعرض الأب لابنه أبى عبيدة عدة مرات فى ساحة المعركة، فتصدى له أبو عبيدة وقتله، وقال البعض تعزيزًا لهذه الرواية إن الآية (٢٢) من سورة المجادلة، نزلت فى أبى عبيدة بن الجراح بشأن هذه الواقعة.

وقد توقفت أمام هذه الرواية طويلًا، فمع أن القصة تحمل دلالة على بسالة هذا الصحابى وتفانيه من أجل الدعوة وعظمته فى عيون معاصريه، فإنه لا يسهل التسليم بها بغير دليل يقينى لمن يعرف أخلاقيات أبى عبيدة، ورفقه ولينه بعامة، ورقته مع أهله بخاصة، وهى شيم لا يسهل معها أن يقتل بيده أباه، لاسيما كل ما ذكره القرآن ذاته فى شأن موقف الأبناء المسلمين من آبائهم الذين ظلّوا على الشرك، تجلى فى قوله سبحانه: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [لقمان: ١٥]، وليس يستقيم إذن إسناد هذه الواقعة إلى أبى عبيدة، إلا إذا قام عليها يقين مستخلص من مبررات وبراهين تنضح بأنه لم يكن لأبى عبيدة مندوحة عن ذلك، لاسيما قد أكد الواقدى أن والد أبى عبيدة، توفى قبل الإسلام، وعلى ذلك قامت أدلة استقصيتها، مثلما استقصيت مناسبة نزول الآية (٢٢) من سورة المجادلة، وباقى ما يدور حول هذه الرواية، لأقطع الشك باليقين فيها ما أمكننى ذلك.

فقد مر بنا أسماء من تصدوا من القرشيين للتحريض على الخروج لقتال المسلمين، وأسماء من أخبر الغلامان أنهم موجودون من أشراف قريش فى معسكرها وراء الكثيب، وهى هى الأسماء ذاتها التى تداولتها كل المصادر عن سير المعركة، وأنت ترى أن والد أبى عبيدة لم يكن بينهم، ولو كان فيهم لذكر اسمه فى أى

من هذه الروايات المتعددة، فهو عبد الله بن الجراح، من أشراف قريش، يجتمع نسبه مع النبى ﷺ فى فهر بن مالك، وغير معقول أن يفوت كل المصادر ذكره فى كل هذه الأحداث إن كان مشاركًا فيها، أو فى بعضها، وذلك يحمل على الاعتقاد بصدق رواية الواقدى حين قال إنه مات قبل المبعث. يصادق ذلك أننا لم نجد أية رواية تنقل قبل الهجرة ما لا بد أن يدور بين الابن الذى أسلم أبيه الباقى على الشرك. لاسيما أن المصادر لم تترك كبيرة ولا صغيرة إلَّا أوردتها ـ وفضلًا عن ذلك، فلم يرد اسم عبد الله بن الجراح ضمن قتلى بدر من القرشيين الذين أحصاهم ابن إسحق وابن هشام وغيرهما اسمًا اسمًا. مع أنَّ ذكر أنه قُتل فى المعركة بيد ابنه أبى عبيدة، كفيل بذاته أن يلفت نظر المؤرخين إلى إيراده ضمن القتلى من القرشيين فى بدر أو فى أُحد كما قالت رواية مرجوحة هى الأخرى، وأن قصة مقتله بيد أبى عبيدة قصة منتحلة، انتحلها رواة لم يتثبتوا، أو ظنوا بغير فحص أنها تسبغ بطولة على أبى عبيدة، فلم يتحروا الدقة فى التثبت منها قبل نقلها، وهى رواية ظنى أنها لا تضيف إلى أبى عبيدة، فله من صفحات البطولة ما يستغنى به عن قصة مرجوحة إن لم تكن منتحلة، تتعارض مع المنطق ولا تتفق مع ما عرف عن أبى عبيدة من رفق ولين كانا كفيلين ـ على الأقل ـ بأن يتجنب قتل أبيه بيده، وأن يترك أمره لغيره من المجاهدين. وكانوا مالئين بجهادهم، باحة المعركة فى بدر.

لقد نفى الواقدى هذه الواقعة. وقال إن والد أبى عبيدة مات قبل المبعث. وأورد ابن الأثير فى أُسد الغابة[1]، أن الواقدى ينكر هذه القصة ويقول: توفى أبو أبى عبيدة قبل الإسلام، وأضاف أن بعض أهل العلم ردوا قول الواقدى. أما سبل الهدى والرشاد فى سيرة خير العباد المشهورة بالسيرة الحلبية ـ للشامى. فإنها وإن تضمنت إشارة مبتسرة إلى هذه القصة، فإنها أوردت تفصيلاً أسماء من قتلوا من المشركين فى بدر وأسماء من قَتَل منهم، ولم يرد اسم والد أبى عبيدة ضمن

(١) أسد الغابة ١٢٨/٣ ، ١٢٩.

القتلى من قريش، ولا ورد بالتالى أن أبا عبيدة أو غيره هو الذى قتله[1]. وما كان اسم عبد الله بن الجراح، والد أبى عبيدة، ليسقط من هذا الحصر، لو كان قد قتل بيد ابنه ـ أو سواه ـ فى بدر، فهذه الواقعة لافتة من المستحيل أن تسقط من حصر أسماء القتلى من كفار قريش، ناهيك عن الأسماء التى وردت لمن قُتِل منهم.

ويلاحظ أن ابن عساكر لم يذكر فى تاريخ دمشق[2] سوى أن أبا عبيدة شهد بدرًا، ولم يورد أية إشارة إلى هذه القصة، بينما نجد أن شمس الدين الذهبى، وإن أشار بابتسار إلى هذه القصة فى تاريخ الإسلام ـ المغازى، فإنه لدى حصره أسماء قتلى قريش (ص ٩٥) ـ لم يورد فيهم اسم عبد الله بن الجراح، وقد كانت القصة كفيلة ـ لو كانت حقيقية ـ للفت نظره وغيره إلى إيراد اسم والد أبى عبيدة ضمن قتلى قريش فى بدر.

وبمراجعة صفوة السيرة النبوية لابن كثير[3]، وجدنا أنه بدوره قد أورد (٢/٢٠٧ ـ ٢١٦ ثم ٢٢٥/٢٢٦ ط الأوقاف) أسماء قتلى قريش، ولم يرد فيهم اسم عبد الله ابن الجراح، وذكر (٢/٢٣٩ ـ ٢٥٦) أسماء أهل بدر من المسلمين، وذكر (٢/٢٨٤) اسم أبى عبيدة بن الجراح وأنه كان أحد العشرة من المهاجرين الأولين، ولم يشر إلى هذه القصة والتى لم ترد أيضًا فى سرده لأحداث الغزوة، ولا فى كتابه: غزوات النبى (١/٤٩).. فلم ترد فيه أيضًا أية إشارة إلى هذه القصة، مع أنها قصة لافتة ويستحيل أن تسقط عدة مرات من ابن كثير إذا كانت حقيقية[4]!

وبمراجعة مغازى الواقدى[5]، وجدنا أنه ذكر تفصيلاً (١/١٤٧ ـ ١٥٢) أسماء من قتلوا من المشركين فى بدر، ولم يذكر فيهم والد أبى عبيدة بن الجراح، ولم ينسب إلى أبى عبيدة أنه قتل واحدًا بذاته فى بدر، الأمر الذى يؤكد أن هذه

---

(١) سبل الهدى والرشاد فى سيرة خير العباد ٤/١١٥ ـ ١١٧.

(٢) تهذيب تاريخ دمشق الكبير. ابن عساكر ٧/١٦١.

(٣) صفوة السيرة النبوية لابن كثير ٢/٢٠٧ ـ ٢١٦، ٢/٢٣٩ ـ ٢٥٦، ٢/٢٨٤.

(٤) غزوات النبى ـ ابن كثير ـ تحقيق د. أحمد عمر هاشم وآخرين ١/٤٩.

(٥) مغازى الواقدى ١/١٤٧ ـ ١٥٢.

القصة منتحلة، وذلك يتفق مع ما أورده الواقدى من أن والد أبى عبيدة مات قبل الإسلام.

وبمراجعة الدرر لابن عبد البر[1]، وجدناه (ص ١١٣ ـ ١١٧) قد استعرض أسماء من شهدوا بدرًا من المهاجرين. وذكر (ص١١٦) أنه شارك من بنى الحارث ابن فهر: أبو عبيدة ابن الجراح واسمه عامر بن عبد الله بن الجراح، وعرض ابن عبد البر (ص١١٠/١١١) لتسمية قتلى قريش فى بدر وأورد اسم القتيل واسم من قتله. ولم يذكر والد أبى عبيدة ضمن القتلى، ولا ذكر اسم أبى عبيدة ضمن من قتلوا أحدًا بذاته فى بدر.

وعدنا إلى العالم المدقق ابن سيد الناس فى السيرة النبوية (عيون الأثر) فوجدنا أنه (١/٣٤٠ ـ ٣٤٨) قد ذكر تفصيلاً الاشتباكات فى معركة بدر، ولم يورد أن أبا عبيدة اشتبك فيها مع أبيه أو قتله[2].

ومن البديهى عدم التوقف عند روايات المحدثين الذين نقلوا القصة بغير بحث ولا فحص ولا تمحيص، وإنما عدنا إلى ما ذكرناه من مصادر، وختمنا بالأصل، الممثل فى رواية ابن هشام فى سيرته (٢/٣٥٥ ـ ٣٦٤)، وما نقله فيها عن ابن إسحق، فوجدنا أنهما قد أحصيا أسماء قتلى قريش اسمًا اسمًا، وأحصيا أسماء من قتلوا كلاً منهم اسمًا اسمًا، ولم يرد فى هذا الحصر اسم والد أبى عبيدة ضمن قتلى كفار قريش، ولا ورد أن أبا عبيدة قتل واحدًا بعينه من قريش، لا والده، ولا سواه. الأمر الذى يؤكد أن هذه القصة منتحلة، وإلاّ لقام عليها دليل يمكن أن يُطَمْئن الباحث إلى صحتها[3].

وليس أدل على انتحال هذه القصة، من أن البعض عزاها إلى غزوة أحد، مع الفارق الكبير زمانًا ومكانًا بين بدر وأحد، هذا وبرغم أن هذه الرواية وحيدة

---

(١) الدرر لابن عبد البر. ص١١٣ ـ ١١٧، ص١١٠ /١١١.

(٢) عيون الأثر فى السيرة النبوية. ابن سيد الناس ١/٣٤٠ ـ ٣٤٨.

(٣) سيرة النبى لابن هشام. ٢/٣٥٥ ـ ٢٦٤.

ضعيفة منسوبة إلى عبد الله بن مسعود، فإنى أعدت البحث فيما ثبت بالمصادر التى استعرضتها، فلم أجد أصلاً لهذه القصة، فلم أجد اسم والد أبى عبيدة ضمن قتلى قريش فى أحد، ولا اسم أبى عبيدة أنه قتل أباه فيها، مع أن أخبار بطولة أبى عبيدة فى هذه الغزوة مروية تفصيلاً على رأسها ذوده عن رسول الله ﷺ، وقيامه بنزع حلقتى المغفر من وجهه الكريم، وسقوط ثنيتيه بسبب ذلك على ما مر بنا، وسوف نعود إليها فى أحداث غزوة أحد.

هذا ونظرًا إلى أن البعض ساق تأييدًا للقصة، بغير بحث، أن الآية (٢٢) من سورة المجادلة، نزلت فى قتل أبى عبيدة لأبيه فى بدر، فقد عدنا إلى المصادر المعتمدة فى أسباب ومناسبات التنزيل، فوجدت اختلافات تستوقف النظر، وأن الراجح أن هذه الآية غير مخصوصة بواحد بعينه، وإنما نزلت فى جملة ما حدث فى بدر.

فقد ذكر السيوطى، فى كتابه: «لباب النقول فى أسباب النزول»، أن هذه الآية، ونصها: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢]. ذكر أن الطبرانى والحاكم فى المستدرك أورداها بلفظ يقول: «جعل والد أبى عبيدة بن الجراح يتصدى لأبى عبيدة يوم بدر، وجعل أبو عبيدة يحيد عنه، فلما أكثر قصده أبو عبيدة فقتله، فأنزلت».

ولكن السيوطى، عاد فقفى مباشرة بقوله: «وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج قال: حدثت أن أبا قحافة سب النبى ﷺ، فصكه (لطمه) ودفعه أبو بكر صكة فقط، فذكر ذلك للنبى ﷺ فقال: «أفعلت يا أبا بكر؟ فقال: والله لو كان السيف قريبًا منى لضربته به، نزلت الآية»[1].

(١) لباب النقول فى أسباب النزول. السيوطى. فى مناسبة نزول الآية ٢٢ من سورة المجادلة.

هذا وبينما ذكر السيوطى سببين مختلفين للنزول، أحدهما عن القصة المنسوبة إلى أبى عبيدة فى بدر، والأخرى عن واقعة بين أبى بكر وأبيه، فإن الواحدى فى أسباب النزول، قال إن واقعة أبى عبيدة حدثت فى أحد وليس فى بدر، مع الفارق الكبير بين الغزوتين، مكانًا وزمانًا وظروفًا، والغريب أن الواحدى أضاف سببًا آخر للنزول، فقال: «إن ابن أبى بكر دعا أباه يوم بدر إلى البراز، فقال (أبو بكر): «يا رسول الله دعنى أكن فى الرعلة الأولى. فقال له رسول الله ﷺ: متعنا بنفسك يا أبا بكر أما تعلم أنك عندى بمنزلة سمعى وبصرى».. هذا وهناك قصة مؤكدة فى أُحُد ـ نهى فيها النبى ﷺ سعد بن أبى وقاص عن تتبع أخيه عتبة الذى أصاب الرسول، وقال له أتريد أن تقتل نفسك؟! (وهذا يؤكد أن العبارة المنسوبة إلى الرسول ﷺ عبارة منتحلة!). هذا وقد أضاف الواحدى أن الآية نزلت أيضًا: فى مصعب بن عمير قتل أخاه عبيدة بن عمير فى أُحُد، وفى عمر قتل خاله العاص بن هشام بن المغيرة يوم بدر، وفى على وحمزة قتلا عتبة وشيبة ابنى ربيعة والوليد بن عتبة يوم بدر وذلك قوله ـ تعالى ـ ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم[1].

وأنت ترى تناقض رواية الواحدى مع رواية السيوطى بالنسبة لأبى بكر، فقد ذكر السيوطى أن النزول كان لواقعة بين أبى بكر ووالده أبى قحافة، بينما ذكر الواحدى أنها لواقعة مبارزة بين أبى بكر وابنه يوم بدر، ثم أنت ترى أن الواحدى جمع فى بعض ما أورده، عدة وقائع معظمها يوم بدر واثنتان معزوتان إلى يوم أُحُد، فعزا واقعة أبى عبيدة، وواقعة قتل مصعب بن عمير لأخيه عبيد إلى يوم أُحُد، بينما عزا وقائع مبارزة أبى بكر لابنه، وقتل عمر لخاله العاص، وكذا من أجهز عليهم حمزة وعلىّ فى المبارزة: عتبة وابنه الوليد وأخوه شيبة ـ إلى يوم بدر، بينما المتفق عليه أن الآية نزلت فى أعقاب بدر وقبل أُحُد، مما لا يستقيم معه الجمع بين واقعات فى بدر وأخرى فى أحد، كسبب أو مناسبة

(١) أسباب النزول للواحدى. فى مناسبة نزول الآية ٢٢ من سورة المجادلة.

لنزول آية نزلت فى أعقاب بدر وقبل أُحُد، وهذا يسرى بداهة على الواقعة المنسوبة لأبى عبيدة التى عزاها الواحدى إلى يوم أُحُد، بينما نزلت الآية بعد يوم بدر وقبل أُحُد.

ولهذا الاضطراب، والتناقض، ترى العالم المحقق الدكتور/ أبو عمر نادى ابن محمود حسن الأزهرى، الأستاذ بكلية الدراسات الإسلامية بالأزهر الشريف، ينحى كل ذلك ويستبعده فى كتابه: «المقبول من أسباب النزول» ـ ط١ ـ ١٩٩٧م ـ فلا يعرض لشىء على الإطلاق مما ورد بالسيوطى أو الواحدى، ولا يورد الآية نفسها (المجادلة٢٢)، تعبيرًا عن أنه لم يجد فيما قيل عن مناسبات نزولها ـ ما يستوثق من قبوله فى الكتاب الذى خصصه للمقبول ـ فقط ـ من أسباب النزول[١].

أما فى كتابه: «الدخيل من أسباب التنزيل» ـ ط ١ ـ ١٩٩٩م ـ فقد تعرض بالنسبة للآية (٢٢) من سورة المجادلة، إلى ما أخرجه أبو المنذر عن ابن جريج، أن ابن جريج كثير التدليس، وصفه النسائى، وغيره بذلك. وقال الدار قطنى: شر التدليس لابن جريج، فإنه قبيح التدريس لا يدلس إلا فيما سمعه من مجروح، وأضاف الدكتور الأزهرى بالحاشية: راجع طبقات المدلسين لابن حجر الطبقة الثالثة ـ رقم١٧ [٢].

ومن يراجع نص الآية الكريمة، وقد ذكرت الآباء والأبناء والإخوة والعشيرة، يرى أنها أعم من أن يُخَص سبب أو مناسبة نزولها بشخص واحد بعينه، ولذلك فربما كان الأصح، وهو ما أشار إليه عبد الرحمن أبو عميرة فى كتابه: «رجال ونساء أنزل الله فيهم قرآنًا»[٣]، وأخذتُ به وغيره من رواية الثقات ـ فى السيرة

---

(١) المقبول من أسباب النزول. د. أبو عمر نادى بن محمود الأزهرى ـ ط ١ ـ ١٩٩٧م عن الآية ٢٢ من سورة المجادلة.

(٢) الدخيل من أسباب التنزيل. د. أبو عمر نادى محمود الأزهرى ـ ط ١ ـ ١٩٩٩م عن الآية ٢٢ من سورة المجادلة.

(٣) رجال ونساء أنزل الله فيهم قرآنا. عن الآية ٢٢ من سورة المجادلة.

النبوية فى رحاب التنزيل (٢/٢٧٩-٣٠٠)[1] نسبةً إلى بعض المفسرين، من أن هذه الآية نزلت فى مجموعة - وليس فى واحد بعينه - من المسلمين الأوائل، ومن يراجع نتيجة القتال فى بدر، يلمس بوضوح أنها كانت المناسبة التى نزلت بشأنها هذه الآية. فقد كانت القرابات بأنواعها، حاضرة فى المعركة وفى مجاهدة ونتائج قتال حمزة وعلى وأبى بكر وعمر ومصعب وغيرهم من المسلمين الأوائل الذين لم يوادوا من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم. ومن ثم فلا محل للاستشهاد بمناسبة نزول هذه الآية لتوثيق القصة المنتحلة عن قتل أبىعبيدة لأبيه يوم بدر.

وغنى عن البيان أن القصة الوحيدة التى زعمت أن مقتل والد أبى عبيدة، بيد ابنه، كانت يوم أُحُد، قصة ضعيفة جدًا، لا تصمد لأى بحث، ذلك أن جميع من قتل من قريش فى هذا اليوم تسعة عشر رجلاً، لقاء سبعين من المسلمين، وأجمعت المصادر الأولى على ذكر أسماء قتلى قريش، وذكرتهم اسمًا اسمًا، سواء ابن هشام أو روايات ابن إسحق، أو الذهبى فى تاريخ الإسلام، أو الشامى فى السيرة الحلبية (سبل الهدى والرشاد) - ولم يرد اسم عبدالله بن الجراح ضمن قتلى قريش يوم أُحُد فى أى من هذه المصادر أو غيرها.

ويبقى أن التأرجح بين بدر وأُحُد، دليل آخر على انتحال هذه القصة، فلو كانت صحيحة، لاتفقت الروايات على يوم واحد لا خلاف عليه ولا تأرجح فيه!

وفى اعتقادى، أن تمحيص هذه الرواية كان واجبًا من أجل أبىعبيدة ذاته. فَقَتْلَه أباه لا يضيف بطولةً إلى صفحات بطولاته التى طارت فى الآفاق، بينما قد يثير التباسًا لم يقدره المنتحلون للرواية - حق قدره!

يبقى أن فضل أمين الأمة، المجاهد الكبير، أبى عبيدة بن الجراح، فضل عظيم أسبغه المصطفى عليه الصلاة والسلام على أهل بدر من المجاهدين من المهاجرين والأنصار.

---

(١) السيرة النبوية. فى رحاب التنزيل. رجائى عطية - المجلد/٢ - ص ٢٧٩ - ٣٠٠.

أخرج البخارى ومسلم، بسنده، أن عمر بن الخطاب استأذن رسول الله ﷺ فى ضرب عنق حاطب بن أبى بلتعة الذى خان الأمانة حين أرسل بكتاب فى عام الفتح إلى أهل مكة، فقال له رسول الله ﷺ ناهيًا إياه: «قد شهد بدرًا وما يدريك لعل الله اطّلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم». وفى لفظ البخارى: «أليس من أهل بدر ـ ولعل الله اطّلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد وجبت لكم الجنة ـ أو قد غفرت لكم»، فدمعت عينا عمر وقال: الله ورسوله أعلم.

وأورد الإمام أحمد بن حنبل فى مسنده، بسنده عن جابر، قال: قال رسول الله ﷺ: «لن يدخل النار رجل شهد بدرًا أو الحديبية». وأورد بسنده عن أبى هريرة، قال النبى ﷺ: «إن الله اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»، وروى البزار بسنده عن أبى هريرة، قال رسول الله ﷺ: «إنى أرجو أن لا يدخل النار من شهد بدرًا إن شاء الله». (رواه ابن ماجة٢٤٨١، وابن حنبل فى المسند ٦ / ٢٨٥).

وأخرج البخارى فى باب شهود ملائكة بدر، حديثًا مرفوعًا بسنده عن معاذ ابن رفاعة بن رافع الزرقى عن أبيه ـ وكان من أهل بدر ـ قال: جاء جبريل عليه السلام إلى النبى ﷺ فقال: «ما تعدون أهل بدر فيكم؟ قال: من أفضل المسلمين ـ أو كلمة نحوها» ـ قال: «وكذلك من شهد بدرًا من الملائكة»، (رواه البخارى فى المغازى فى باب شهود الملائكة يوم بدر ٣٩٩٢ وابن حجر فى فتح البارى ٣١٢/٧، وابن حنبل فى المسند ٤٦٥/٣).

وأخرج البخارى بسنده عن حميد أنه سمع أنسًا يقول: أصيب حارثة يوم بدر فجاءت أمه إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله قد عرفت منزلة حارثة منى فإن يك فى الجنة أصبر وأحتسب، وإن تكن الأخرى فترى ما أصنع؟ فقال: «ويحك أو هَبِلْتِ أو جنّة واحدةٌ؟ إنها جنانٌ كثيرة وإنه فى جنة الفردوس» (البخارى فى صحيحه ٩٨/٥، ١٤٢/٨ ـ وابن حجر فى فتح البارى ٣٠٤/٧،

٤١٥/١١) ـ وروى من غير هذا الوجه من حديث ثابت وقتادة عن أنس أن حارثة كان فى النّظّارة وفيه: «إن ابنك أصاب الفردوس الأعلى». (المنذرى فى الترغيب والترهيب ٣٢٥/٢).

المسيرات بين بدر وأُحُد

كان انتصار المسلمين الكبير فى بدر، امتحانًا بقدر ما هو انتصار. فقد كان بمثابة حافز لقريش وكفار ومشركى الجزيرة العربية، لمزيد من العداء والحرص على الثأر والسعى لضرب الدعوة قبل أن يستفحل أمرها، ويستعصى عليهم محاصرة مدّها الذى طفق يتزايد تزايدًا أحست به قريش من واقع من أخذوا يتسربون سرًا من مكة للحاق بالمدينة، فضلاً عمن كانت تأتى أخبارهم ممن راودهم الإسلام أو أسلموا من بعض القبائل، ولم يكن ذلك التربص القرشى ببعيد عن التفات وتقدير المسلمين، وانتباههم إلى المحافظة على صَدّ محاولات التجرؤ عليهم.. وقد كانت المهمة الأولى التى أعقبت العودة إلى المدينة من بدر، مواجهة ما جعل يتزايد فى المدينة من مؤامرات اليهود والمنافقين. فقد كان وقع هذا النصر وأثره شديدًا عليهم، فجعلوا يتغامزون ويتآمرون كيف لهذا الذى جاءهم طريدًا ومن معه من أقل من عامين، قد صار صاحب المكانة والكلمة المسموعة فى يثرب، وبدأت هذه الطوائف فى بث الأشعار التى تحرض عليهم، ويتربصون بالمسلمين بما امتلأت به نفوسهم من الغل والضغينة. حتى أطلق اليهودى كعب ابن الأشرف لسانه يقول عمن قتلوا فى بدر من سادات مكة: «هؤلاء أشراف العرب وملوك الناس. والله لئن كان محمد أصاب هؤلاء القوم لبطن الأرض خير من ظاهرها!.. ولم يكتف بذلك، فشد رحاله إلى مكة يحرض فيها على محمد والمسلمين، وينشد الأشعار ويبكى قتلى قريش الذين دفنوا فى القليب.. فلما عاد إلى المدينة جعل يشبب بنساء المسلمين، وتجرأ يهود بنى قينقاع على امرأة من العرب ذهبت إلى صائغ فى سوق اليهود من بنى قينقاع فى شأن حلية لها،

وجعل اليهود يريدونها أن تكشف وجهها، وعبث الصائغ بها بأن ثبت طرف ثوبها بشوكة إلى ظهرها، فلما نهضت انكشفت سوأتها فتصاعدت ضحكاتهم وسخرياتهم، فوثب رجل من المسلمين على الصائغ اليهودى فقتله. وشددت اليهود على المسلم فقتلوه، ووقع الشر بين المسلمين وبين يهود بنى قينقاع، ولما طلب النبى عليه السلام إلى هؤلاء أن يكفوا أذاهم عن المسلمين وأن يحفظوا عهد الموادعة الذى أعطاه لهم النبى ﷺ فور قدومه إلى المدينة. استخفوا بقوله. وأجابوه: «لا يغرنَّك يا محمد أنك لقيت قومًا لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة، إنا والله لو حاربناك لتعلمن أنَّا نحن الناس».

جلاء بنى قينقاع

نبذ بنو قينقاع العهد إلى رسول الله ﷺ، وتحصنوا بحصونهم. فخرج إليهم الرسول ﷺ فى شوال ٢هـ، فى عدة من المسلمين كان من بينهم صاحبنا أبو عبيدة بن الجراح الذى أجمعت المصادر أنه شهد المشاهد كلها مع رسول الله، وحاصروهم خمسة عشر يومًا، فنزل اليهود على حكم الرسول، وكانوا حلفاء الخزرج، فتوسط لهم عبدالله بن أبىّ بن سلول بطريقة فجة، وتجاوز حدوده بصورة أغضبت الرسول ﷺ، فى قصة طويلة توسط فيها بأدب: عبادة بن الصامت الأنصارى، وانتهت بجلاء بنى قينقاع عن المدينة، حتى بلغوا وادى القرى، ومن هناك احتملوا ما معهم، وساروا حتى بلغوا «أذْرِعات» على حدود الشام، وهناك أقاموا.

المسيرة إلى قَرْقَرة الكُدر

كان ذلك فى شوال للسنة الثانية للهجرة، واختلف المؤرخون فى تواريخ وترتيب المسيرات ما بين بدر وأحد، ويقال إن أقربها زمنًا إلى واقعة بنى قينقاع، المسيرة إلى بنى سُلَيْم فى «قَرقَرة الكُدْر».. والقرقرة هى الأرض الملساء، أما الكُدْر، فطيوُرٌ بألوانها كدرة عرف المكان باسمها لتجمع هذه الطيور فيه..

وأورد ابن إسحق أن هذه المسيرة كانت أسبق من غزوة بنى قينقاع، وكان سبب المسيرة إلى بنى سليم، أنه وردت أخبار بأن جمعًا من سُلَيْم وغَطَفان قد احتشدوا فى الكُدْر، فسار إليهم الرسول فى شوال بعد سبع ليال من وصوله من بدر، وبلغ بمن معه، وكان فيهم صاحبنا أبو عبيدة بن الجراح الذى أجمعت المصادر أنه شهد المشاهد كلها مع الرسول ﷺ بلغوا ماءً من مياه بنى سليم يقال له الكُدْر، فلم يجد عليه الصلاة والسلام أحدًا، فأرسل نفرًا من أصحابه للاستطلاع من أعلى الوادى، واستقبلهم فى بطن الوادى بعد أن تأكدوا أن القوم قد رحلوا، ثم أقام ﷺ ومن معه ثلاث ليال حتى تتسامع بهم القبائل، ثم عادوا إلى المدينة دون أن يلقوا كيدًا.

غزوة السويق

ويكاد يجمع الرواة، على أن سبب غزوة السويق.. والسويق نسبة إلى القمح أو الشعير المقلى المطحون بسمن أو بعسل وسمن.. والصحيح أنها مسيرة لا غزوة وإنما درج الأقدمون على هذه التسمية لخروج الرسول عليه السلام فيها، وكانت فى ذى الحجة من السنة الثانية للهجرة، ويكاد الرواة يجمعون على أن سبب المسيرة، أنه وردت الأخبار بأن فلول المشركين عندما عادوا موتورين محزونين إلى مكة، حَرّم أبو سفيان الدُّهْن على نفسه، ونذر ألا يمسَّ الماء رأسه من جنابة، حتى يثأر من محمد وأصحابه بمن أصيب من المشركين يوم بدر، فخرج فى مائتى راكب من قريش ليبرّ يمينه، فسلك النجدية[1]، حتى نزل بصدر وادٍ إلى جبل يقال له: «يتيب» بقرب المدينة، حيث تسلل أبو سفيان ليلًا إلى يهود بنى النضير ليدبر معهم ما يفعلونه بمحمد ﷺ، ويقال إن حُيى بن أخطب خشى أن يفتح له عندما ضرب عليه باب، إلا أن سلام بن مشْكم، وكان سيد بنى النضير فى زمانه، استقبله سرًا ونقل إليه خبر الرسول والناس، وأمضيا الليل

(١) مرتفع من الأرض نسبة إلى نجد.

يتآمران ويزين سلام لأبى سفيان كيف يستطيع أن يأتى المسلمين من خلفهم، فلما عاد أبو سفيان إلى حيث نزل برجاله، بعث بعضًا منهم. فأتوا ناحية يقال لها: «العُرَيْض»، وهو وادٍ بالمدينة به أموال لأهلها، فحرقوا ما بالمنطقة من نخل، ووجدوا رجلاً من الأنصار وحليفًا له فى حرث فقتلوهما!

ويروى الرواة أن الرسول ﷺ خرج إليهم يوم الأحد الموافق الخامس من ذى الحجة ٢هـ، فى نحو مائتين من المهاجرين والأنصار، فيهم صاحبنا أبو عبيدة بن الجراح الذى أجمعت المصادر أنه شهد المشاهد كلها مع رسول الله، حتى بلغ بهم ﷺ «قَرْقَرة الكُدْر»، بيد أن أبا سفيان ومن معه لاذوا بالفرار، وجعلوا يتخففون للهرب فيلقون ما معهم من جُرب السويق وهى عامة زادهم، فسميت المسيرة «غزوة السَّويق»، ولم يلحق بهم المسلمون فعادوا إلى المدينة بعد أن مكثوا خمسة أيام حتى تتسامع بهم الناس فلا يجترئون عليهم، ويروى أن المسلمين حينما رجعوا سألوا النبى ﷺ: أنطمع أن تكون لنا غزوة؟ قال: نعم. ولعل هذا هو مرجع إطلاق مسمى «غزوة» عليها، حيث كانت خروجًا لدفاع، ولم تكن غزوًا، فضلاً عن أنه لم يحدث فيها قتال.

غزوة غطفان أو ذى أمر

وفى ربيع الأول من السنة الثالثة للهجرة، خرج النبى ﷺ فى عدد من المسلمين، إلى غطفان، حينما بلغه أن جمعًا من بنى ثعلبة بن سعيد بن ذبيان من غطفان، وبنى محارب بذى أمر، قد تجمعوا يريدون أن يصيبوا أطراف المسلمين، فخرج ﷺ فيما سمى غزوة غطفان أو ذى أمر إلى نجد، خرج فى أربعمائة وخمسين، كان فيهم صاحبنا أبو عبيدة بن الجراح الذى لم يتخلف عن أى مشهد مع الرسول ﷺ، فأصابوا رجلاً بذى القصة يقال له: جبار من بنى ثعلبة، فأخبر الرسول أنه خرج لاستطلاع يثرب. وقال للنبى ﷺ: إن غطفان وبنى محارب لن يلاقوك، ولو سمعوا بسيرك هربوا فى رءوس الجبال وأنا

سائر معك. فدعاه الرسول إلى الإسلام وأسلم، ودل المسلمين على موضع القوم، حيث بلغوا ماءً يقال له: «ذو أَمَرّ»، إلا أن القوم حينما أحسوا بالمسير إليهم، هربوا إلى رءوس الجبال، وتفقد المسلمون المكان فلم يجدوا أحدًا، ولكنهم رصدوا أشباحهم من بعيد على ذرى الجبال القريبة! فلبث المسلمون أيامًا لتتسامع بهم العرب، وعادوا إلى المدينة بعد خمس عشرة ليلة، دون قتال.

المسيرة إلى الفُرع من بُحران

وما كاد المسلمون يلبثون أيامًا بالمدينة، حتى جاء الخبر بأن جمعًا كثيرًا من بنى سُليم بن منصور، قد احتشدوا فى موضع «الفُرع» من «بُحْران»، فخرج النبى عليه السلام إليهم فى نحو ثلاثمائة من أصحابه، وفيهم صاحبنا أبو عبيدة المجمع على أنه شهد المشاهد كلها مع رسول الله، وحرص المسلمون على ألاّ يكشفوا وجهتهم، وقبل بُحران لقوا رجلاً من بنى سُليم احتجزوه، وأخبرهم أن القوم افترقوا، ولكن النبى ﷺ سار بمن معه، حتى وردوا بُحْران، فلم يجدوا أحدًا، فلبثوا فى قول الواقدى عشرة أيام، وفى رواية ابن إسحق أنهم أقاموا باقى شهر ربيع الآخر وجمادى الأولى للسنة الثالثة للهجرة، وذلك حتى يتسامع العرب بهم فلا يتكرر اجتراء الكفار والمشركين عليهم، هذا وقد قام المسلمون بإخلاء سبيل الرجل الذى لاقوه قبل أن يعودوا إلى المدينة دون قتال ودون أن يلاقوا كيدًا.

صد الكفار عن المدينة
فيما شاعت تسميته: بغزوة أُحُد
(شوال ٣ هـ)

لعلك لاحظت أننى أطلقت مسمى «المسيرة» على ما كان بين بدر وأحد، ولم يكن ذلك عفوًا، ذلك أنها كانت مسيرات، ولم تكن غزوات فيما جرت

به كتابات المؤرخين القدامى، وتابعتهم كتابات المحدثين حتى اليوم. ذلك أن الأقدمين أطلقوا مسمى «غزوة» على كل ما خرج الرسول ﷺ فيه، غير أن المعنى الدارج اليوم لكلمة «غزوة»، و «غزو»، سواء باللغة العربية أو بترجمة الكلمة إلى اللغات الأجنبية، يعطى لبعض الوقائع وصفًا غير صحيح لها، فيظن القارئ العربى، والأدهى القارئ الأجنبى، أن المسيرة بلا قتال كانت غزوًا، أو أن الدفاع عن المدينة فى أُحُد والخندق، كان غزوًا، وقد أدت هذه التسميات إلى إحصاء عدد غزوات بما لا يطابق الواقع، وكان للأسف مادة لهجوم المتربصين للإسلام بأنه قام على السيف والغزو، ولذلك آن الأوان أن نعدل عمّا اعتاده الأقدمون ولم يجدوا فيه بأسًا، إلى المسميات الصحيحة التى تعبر بلغة عصرنا عما كان فعلاً. ولذلك أطلقت على ما سبق، بين بدر وأحد أنه مسيرات، فلم يدر أو يحدث فى أى منها أى قتال، كما لم تكن غزوًا بالمعنى الاصطلاحى الذى نعرفه لكلمة الغزو.

ولعلك لاحظت أيضًا أننى قد اخترت المسمى الصحيح ليوم أحد، فلم يكن ما جرى فيه غزوًا بأى معنى من المسلمين، وإنما خرج المسلمون لصد الكفار من جبل أحد عن مداهمة المدينة والهجوم عليها، وقد سبق أن تعرضت لذلك فى كتاب «الأديان والزمن والناس» (كتاب الهلال ٦٦٦ ـ سبتمبر (أيلول) ٢٠٠٦م)، فقلت فى الفصل المعقود فيه للأديان واللغة:

«لم يقصد الأقدمون ـ مثلًا، بلفظ «غزوة» الذى استخدموه فى رواية سيرة نبى الإسلام ﷺ، سوى أن النبى عليه السلام كان موجودًا بشخصه بين المسلمين فى «المسيرة» أو «البعثة» أو «المرابطة» أو «المدافعة» أو «السرية» ـ فأطلقوا لفظ «غزوة» على كل ما كان النبى عليه السلام موجودًا فيه، دون أن يقصدوا غزوًا بالضرورة، وإنما قصدوا تمييزها عن تلك التى لم يكن الرسول حاضرًا فيها بنفسه.. ومن ثم فإن عدم الالتفات فى الكتابة أو القراءة ـ اليوم ـ إلى المعنى«الاصطلاحى» الذى قصده الأقدمون فى رواية السيرة المحمدية،

يسرب إلى وعى المتلقى المعنى المعجمى والمفهوم العصرى السائد الآن لكلمة «غزوة» ، فيحسب أن رسول القرآن ﷺ غـزا الأراضى والناس فـى كل ما صاحبه وصف «غزوة»، بينما لم يكـن معظمهـا سوى «مسيرات» و «بعوث» لموادعة القبائل، وتأمين دار الهجرة، واستطلاع ما عساه أن يدبـر لمداهمة المدينة والإغارة عليها، أو «مرابطة» أو «مدافعة» لرد هجوم الكفار عن دار الهجرة، فلم تكن غزوة «أحد» غزوًا وإنما كانت «مدافعة» بظاهر المدينة لرد قريش التى جاءت بأحلافهـا مـن الكفار للهجوم على المسلمين بالمدينة!.. ولم تكن غزوة «الخندق» غزوًا ـ فلم يخرج الرسول والمسلمون لغزو أرض ولا ناس، وإنما رابطوا وحفروا خندقًا حول المدينة لصد الأحزاب الذين حاصروها لغزوها! ولم تكن غزوة «تبوك» غزوًا ـ وإنما مسيرة لصد هجـوم مرتقب أتت الأخبار بأن الروم يحشدون له على التخوم لمهاجمة المسلمين !

ومن يتابع يلاحظ مخاطر عدم الالتفات إلى المفهوم الاصطلاحـى الذى كان معنيًا بكلمة «غزوة» فى كتابة السيرة المحمدية، بيد أن هذه المخاطر تتضاعف وتوغل فـى الابتعـاد عن المقصود حين تترجم الكلمة إلى لغة أخرى!.. ذلك أن للكلمة فى الإنجليزية مرادفات عديدة هى فى النهاية لمطلق كفاءة وذوق واختيار المترجم. من هذه المرادفات: «invade» ومعناها: اعتدى على، وغزا، وهجم، أو أغار على.. وكلمة «Raid» وتعنى: غارة أو مداهمـة أو سطو..، وكلمة: «attack»، وتعنى: هاجـم، أو هجم على، أو داهـم، أو أغـار علـى، أو انقض علـى.. وكلمة: «assault»، ومعناهـا اعتدى واغتصب وهاجم، وغارة وحملـة واعتداء وتهجـم وهتك وهجـوم عنيف. وكلمة: «maraud» ـ وتعنى «الإغارة للسلب والنهب»!!

نحن إذن، أمام موقعة جرت على جبل أُحد خرج فيها المسلمون لا للغزو، وإنما لصد هجوم كفار قريش عن المدينة، فقد أجمعت الروايات على أن ثارات قريش لم تهدأ منذ يوم بدر، وقد رأيت ما كان من اتصالات بين قريش ويهود

المدينة ومنافقيها للتأليب على المسلمين، ورأيت الغارة التى شنها كرُز بن جابر الفهرى على أطراف المدينة وهروبه إلى «سَفوان» قبل يوم بدر، ورأيت إغارة أبى سفيان ـ بعد بدر ـ على وادى «العُرَيْض» بأطراف المدينة، وتحريقهم النخل وقتلهم رجلاً من الأنصار وحليفًا له، وفرارهم فيما سمى بـ «غزوة السّويق» ـ لتخفف الكفار المغيرين الفارين بإلقاء ما كان معهم من زاد أغلبه من جُرب السّويق!

فقد حملت قريش عداوتها وثاراتها وضغائنها، وجمعت بقيادة أبى سفيان، وعبد الله بن أبى ربيعة، وعكرمة بن أبى جهل، والحارث بن هشام، وحويطب ابن عبد العزى، وصفوان بن أمية ـ وأسلموا بعد ذلك ـ جمعت جيشًا ضخمًا لمحاربة رسول الله ﷺ، وأوفدت لجمع الحشود عمرو بن العاص، وعبد الله بن الزَّبَعْرى، وهُبَيْرة بن أبى وَهْب، وأبا عَزّة: عمرو بن عبد الله الجُمَحىّ الذى منّ عليه الرسول وأطلقه يوم بدر ـ فطافوا بقبائل العرب لاستنفارها للخروج مع قريش لحرب المسلمين، واجتمع لقريش جيش ضخم فى نحو ثلاثة آلاف من قريش والأحلاف والأحابيش، فيهم سبعمائة دارع ومائتا فارس، وخرج هذا الجيش العرمرم من مكة ـ قاصدًا المدينة لخمس من شوال للسنة الثالثة من الهجرة، وفيهم العبد الحبشى «وحشى» الموعود بعتقه إن نجح فى قتل حمزة بن عبد المطلب!

وفى المدينة، يصل الخبر للنبى ﷺ، بكتاب من العباس، بخروج قريش وأحلافها من بنى كنانة والأحباش، بعدتهم، قاصدين مهاجمة المدينة. وفى مشاورات طويلة، اختلفت فيها الآراء بين مدافعة الكفار من المدينة وبين الخروج لدفعهم عنها من خارجها، وغلب رأى الخروج لصد الهجوم من خارج المدينة، واستجاب النبى ﷺ ـ رغم ما كان يراه ـ لما ارتآه غالبية أصحابه، فلما جاء سعد ابن معاذ وأسيد بن حضير معاتبين المسلمين على استكراه الرسول على الخروج، وعدل المسلمون عمّا كانوا قد أبدوه وألحّوا عليه، إلّا أن النبى عليه السلام أبى

أن يعدل عما التزم به أخذًا بمشورتهم، وقال لهم: «قد دعوتكم إلى هذا الحديث فأبيتم، ولا ينبغى لنبى إذ لبس لأمته (عدة القتال) أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين أعدائه.. انظروا ما أمرتكم فاتبعوه. امضوا على اسم الله تعالى، فلكم النصر ما صبرتم».

كان المشركون قد عسكروا بجنوب أُحُد، بظاهر المدينة، يملؤهم التيه والغرور بعد أن عرفوا برجوع المنافقين إلى المدينة وضآلة عدد المسلمين الذين رابطوا أمامهم بسفوح أُحُد.. وبعد أن اطمأنت قريش وأحلافها إلى أن عدد الكفار وعدتهم أربعة أضعاف عدد وعدة المسلمين. وتقول الروايات: إن البعض من المسلمين استهول عدد الكفار بالقياس إلى عدد وعدة المسلمين، فذكرهم أحد الصحابة بأن النبى ﷺ أراهم فى بدر أن الناس تُهْزَم بالخذلان لا بعدد الرجال، ويقترح أنصارى الاستعانة بحلفائهم من اليهود لأن عليهم عهدًا وميثاقًا أن يدفعوا مع المسلمين من يهاجم المدينة، فيجيبه النبى ﷺ: «لا حاجة لنا بهم».. ثم يقف النبى فيخطب فى المسلمين خطبة جامعة يهيئهم فيها لملاقاة العدو الذى جاء لمهاجمتهم فى ديارهم. ويؤكد عليهم أن يلتزم الرماة قمة جبل أُحُد، وأن يثبتوا فى أماكنهم، ولا يدعوا الكفار يأتونهم من ورائهم، وأن يلزموا أماكنهم لا يبرحونها حتى إن هَزَمُوا الكفار ودخلوا فى عسكرهم، أو حتى إذا انْهَزَمَ المسلمون وتخطفتهم الطير.. وحتى قال لهم النبى ﷺ: «وإن رأيتمونا نُقتل فلا تعينونا ولا تدفعوا عنا، وانضحوا الخيل عنا وارشقوهم بالنبل فإن الخيل لا تقدم على النبل! غالبين ما ثبتم مكانكم».

التقت موجات الكفار المهاجمين، المسلمين الذين تشبثوا بالدفاع عن دار مهجرهم، وشهدت الفصول الأولى للمعركة انتصارًا ملحوظًا للمسلمين.. شهد بطولات رائعة، تجلت فيها نسيبة بنت كعب ـ البطلة أم الأبطال، والزبير بن العوام.. حوارى الرسول، وأبو دجانة آخذ السيف بحقه، وعلى بن أبى طالب: الفارس المغوار، وأبو عبيدة بن الجراح: الأمين المجاهد، وحمزة بن عبد المطلب:

أسد الله وأسد رسوله. حتى إذا ظهر المسلمون، وخاب سعى قريش وحلفائها، وشاعت الهزيمة فى صفوفهم وجعلوا يفرون أمام المسلمين، اغتر معظم الرماة المكلفين بالتزام قمة الجبل، وغمرتهم أشواق اللحاق بمشاهد النصر الجارى تحت أعينهم بسفوح الجبل، فلما مالوا ونزلوا على خلاف ما أمروا به، دارت الدائرة، وبدأت المقادير تؤذن بتحول خطير!

التفّ خالد بن الوليد، وكان يقود المعركة آنذاك مع المشركين، فركب بالفرسان قمة الجبل. فجعلت الكثرة المشركة ـ بحماية الرابضين على رأس الجبل، تغالب ـ بخيلها وعتادها ـ شجاعة المسلمين.. واستدارت الرحى ، وتبعثر المسلمون بين قتيل أو جريح أو منهزم، وزاغت الأبصار حتى بلغت القلوب الحناجر. وانطلق صوت مرتاع ينادى أن محمدًا قد قتل. وتسرى روح الهزيمة لولا قلة صمدت فى روعة تجل عن أى وصف، فانطلق أنس بن النضر يشد بسيفه على المشركين وهو يرتجز: اللهم إنى أعتذر إليك مما يقول هؤلاء، وأبرأ إليك مما جاء به هؤلاء، وظل يقاتل حتى تكاثرت عليه سيوف المشركين، وتقطعت الأوصال التى نهشتها السيوف، فسقط البطل خامد الأنفاس مضرجًا بدمائه، ومواضع الطعنات فى جسده بالعشرات!!

وفى مشهد آخر، يصول حمزة بن عبد المطلب ويجول، والكل يفرّون من أمامه، ولكنه لا يلاحظ «وحشى» الرابض فى مخبئه لاصطياده، حتى إذا ما حانت له الفرصة، سدد حربته إلى حمزة، فوقعت الحربة فى أسفل بطنه وخرجت من بين رجليه، واندفع حمزة رغم آلامه إلى «وحشى»، ولكن جرحه الدامى غلبه وأعاقته الحربة المرشوقة فى بطنه.. فوقع قبل أن يصل إليه!!

ووسط هذا الاضطراب والخسائر، ترتد أرواح المسلمين إليهم حين ينادى كعب بن مالك: يا معشر المسلمين، أبشروا هذا رسول الله. ولكن المشركين ينتهزون فرصة انكشاف المسلمين ، فيتلمسون النبى ﷺ ـ فى كل مكان ليقتلوه.. بيد أنه يقف لهم عليه السلام كالطود الشامخ، بيد أن عتبة بن أبى وقاص

تمكن من إصابته عليه السلام بأربعة أحجار قذفه بها، فكسر أحدها رباعيته اليمنى السفلى، وجرح شفته السفلى، وتابع عبد الله بن هشام الزهرى رضخه بالأحجار فشجه فى وجهه ـ عليه السلام ـ شجة غائرة حتى أخضل الدم لحيته الشريفة!!

انتهز ابن قميئة هذه الفرصة وهوى بسيفه على رسول الله، فوقع ﷺ فى حفرة أمامه، وامتص وقوعه ودرعه قوة الضربة، فلا يلبث ـ عليه السلام ـ أن ينهض وطلحة بن عبيد الله يحميه من ورائه ويذود عنه من تكاثروا عليه من المشركين.. ولفت تكاثرهم أنظار المسلمين إلى مكان النبى، فطار أبو بكر وعمر والزبير وأبوعبيدة بن الجراح وسعد بن أبى وقاص وعبد الرحمن بن عوف، وثاب معهم إليه من الأنصار: الحباب بن المنذر، وأبو دجانة، وسعد بن معاذ، وسهل ابن حنيف، وسعد بن عبادة، ومحمد بن سلمة.. فأحاطوا بالرسول ﷺ وجعلوا جميعًا يحمونه بأجسادهم.. والنبى عليه السلام يقول، آسيًا: «كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم بالدم، وهو يدعوهم إلى الله عز وجل»؟!

ومن المشاهد التى تستوقف النظر، وتؤكد أن الإسلام لا يرضى أن يقتل المسلم أخاه.. أو أباه من باب أولى، أن النبى عليه السلام قد لاحظ أن سعد بن أبى وقاص يريد أخاه عتبة ـ ويلاحقه على ما فعله بالرسول، فينهاه عليه السلام عن أخيه، ويقول له ناهيًا ناصحًا فى حنو: «تريد أن تقتل نفسك؟!! اللهم لن يحل الحول حتى يموت كافرًا»!.. فينتهى سعد عن ملاحقة أخيه!

التقت طائفة من المؤمنين الذين تبايعوا على الموت، يحمون النبى ﷺ بأجسامهم وأرواحهم، والرسول عليه السلام يعانى من جراحه.. كُسرت رباعيته، وشُج وجهه، وحلقتان من حلقات المغفر الذى كان على رأسه، منغرزتان بوجهه.. وهو عليه السلام مشغول عن ذلك كله بأمر المسلمين يشجعهم ويحفزهم.. بينما ينفلت رأس الكفر أبىّ بن خلف من بين المشركين مقنعًا بالحديد وكاشفًا رأسه، يريد أن يقتل الرحمة المهداة عليه السلام.. ولكن استقبلته ضربة أطاحت به

وبدرعه، فيطير بها إلى المشركين وقد تملكه جزع شديد، وعبثا حاول رفاق الكفر أن يفرخوا روعه، فقد انكشف عنه غطاؤه ورأى المنون زاحفًا إليه بدعاء النبى عليه!.

وسط هذا الهول الذى تبايع فيه هؤلاء الأبرار على الموت، حمايةً لرسول الله، يلمح أبو عبيدة بن الجراح ـ ما أصاب رسول الله، فيطير إليه طيرانًا لنجدته، فى مشهد وصفه أبوبكر الصديق فقال: إن أبا عبيدة اعترضه واستحلفه أن يترك مهمة نزع حلقتى المغفر إليه وقال له: «أقسمت عليه بحقى لما تركتنى فأنزعهما من وجه رسول الله».

يروى أبو بكر أنه تنحى لأبى عبيدة بن الجراح ليقوم بالمهمة بدلًا منه وهو يغالب خوفه من أن يتناول أبو عبيدة الحلقتين بيده فيؤذى النبى ﷺ، ولكن أبا عبيدة التقط إحداهما بفمه وعض عليها، وشدها حتى وقع ووقعت إحدى ثنيتيه مع خروج الحلقة الأولى.. وهنا أراد أبو بكر أن ينزع هو الثانية فاعترض أبو عبيدة ملحفًا، قائلاً له: أقسمت عليك بحقى لما تركتنى! فاستسلم أبو بكر راضيًا لرغبة أبى عبيدة.. وتركه وما يريد.. فزم أبو عبيدة على الحلقة الثانية بفمه وشدها فسقطت ثنيته الثانية بينما سقط أبو عبيدة على ظهره، وما إن شاهد أبو بكر الراحة تبدو على محيًّا رسول الله، حتى تنفس الصعداء، وجعل يراقب صاحبه الغياث، وكان يقول بعد ذلك إنه ما رئى أهتم أصبح وجهًا من أبى عبيدة.

دعنا من تفاصيل ما جرى بعد ذلك فى المعركة وما بعدها، ويمكن أن ترجع إلى تفصيلاته فى المجلد الثالث من كتابنا السيرة النبوية فى رحاب التنزيل (الكتاب الذهبى روز اليوسف ـ ٢٠٠٤م) ما يعنينى هنا وغايتى استقراء جهاد وبطولة وتفانى أبى عبيدة بن الجراح والصحابة، أن النبى ﷺ تحدث عنهم فقال إنه قد وجبت لهم الجنة، وقال عن طلحة بن عبيد الله: «من أحب أن ينظر إلى شهيد يمشى على وجه الأرض، فلينظر إلى طلحة بن عبيد الله».. وفى هؤلاء المجاهدين الأبرار نزلت الآية القرآنية تقول: ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا

ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴾ [الأحزاب: ٢٣]، ونزل فيما نزل بهذه المناسبة ـ عن الشهداء: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٦٩-١٧١].. ونزل فى مواساة المسلمين على ما أصابهم: ﴿ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[آل عمران: ١٤٠].

روى بإسناده، عن رسول الله ﷺ، أنه حين عاد إلى المدينة، دعا لمن معه ودعا للشهداء ودعا لمن خلفوا فقال: «اللهم أذهب حزن قلوبهم، واجبر مصيبتهم، وأحسن الخلف على من خُلّفوا، ثم قال: خلّ الدابة يا أبا عمرو» ـ يعنى سعد ابن معاذ، فخلّى سعد الفَرَس فتبعه الناس، فقال عليه السلام: «يا أبا عَمرو، إن الجراح فى أهل دارك فاشية، وليس منهم مجروح إلاّ ويأتى يوم القيامة جرحه كأغزر ما كان، اللون لون الدم، والريح ريح المسك، فمن كان مجروحًا فليقر فى داره وليداو جرحه ولا يبلغ معى بيتى، عزيمة منى».

وروى أبو يَعْلى بن المنذر أن حاتمًا وابن أبى حاتم عن المِسْور بن مخرمة قال: قلت لعبد الرحمن بن عوف أخبرنى عن قصتكم يوم أحد، قال اقرأ بعد العشرين ومائة من آل عمران، أى من قوله: ﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾، إلى آخر الآية الستين بعد المائة.

وبرغم الانتكاسة التى لحقت بالمسلمين لمخالفة الرماة عن أمر النبى ﷺ، فإن المسلمين استماتوا فى الدفاع عن الرسول ﷺ استماتة من المحال أن يُقْهر صاحبها، وضربوا صورة للفداء لا تصدر إلاّ عن قلوب ملأها الإيمان واليقين الصادق بدينهم وبأنهم على الحق، وأرواح هاجرت إلى الله وباعت الدنيا فى سبيل الآخرة.. هذا

وبرغم النصر الذى تحقق للكفار، فإنهم سقطوا سقطة شديدة بتمثيلهم بالقتلى، وهى مَعَرّة تأباها العرب ولا يقبل عليها الكرام، وتشين من يرتكبها، وقد مثلت قريش بقتلى المسلمين أبشع تمثيل، لم تكن صورة ما حدث لجثمان حمزة الذى شق بطنه وأخرج كبده، إلاّ مشهدًا من مشاهد عديدة سقط فيها الكفار سقوطًا ذريعًا فى تمثيلهم بقتلى المسلمين، حتى مر الحُليْس، سيد الأحباش، صدفة ليرى أبا سفيان يتناول رمحًا ويضرب به فى شدق جثمان حمزة، فمضى الحُليْس وقد ساءه ما يفعله أبو سفيان يقول لمن حوله باستياء: «يا بنى كنانة، هذا سيد قريش يصنع بابن عمه ما ترون لحمًا»! فطار إليه أبو سفيان ليقول له متوسلاً: «ويحك، اكتمها علىّ.. فإنها كانت زلّة»!

لم يخرج المسلمون رغم أن الدائرة دارت عليهم بأية زلّة، بل وكانت لهم صفحات بطولات مجيدة تطوى بدلالتها أية نتائج وقتية، بينما سقطت قريش رغم نصرها فى زلّات كثيرة، وتجلت الفوارق فى المشهد الأخير حينما برز أبو سفيان من بين المشركين على فرس حمراء تضرب إلى السواد، يشرف على المسلمين من عرض الجبل، وينادى متخايلاً: أعل هبل! فيأمر الرسول أصحابه بألاّ يجيبه أحد، فيتابع وقد طاشت أمانيه فى أن يكون محمدٌ وكبار المهاجرين قد قتلوا فى المعركة، فينادى على كل منهم باسمه ليعرف إن كان حيّا أم صرع، والرسول ﷺ يأمر أصحابه بألاّ يجيبه أحد.. وبينما أبو سفيان قد تغشته الأمانى بأن محمدًا وكبار الصحابة قد صرعوا، والتفت للمشركين متباهيًا بأنهم قتلوا وإلاّ لأجابوه، لم يطق عمر بن الخطاب صبرًا، فانفلت غاضبًا يصيح: «كذبت يا عدو الله، قد أبقى الله لك ما يخزيك! إن الذين عددت لأحياء»!

فوقف أبوسفيان ينادى مزهوّا: اعل هبل.

فرد عليه عمر بأمر النبى: الله أعلى وأجل.

قال أبوسفيان: ألا لنا العُزّى ولا عُزّى لكم.

فأجاب المسلمون: الله مولانا ولا مولى لكم!

قال أبوسفيان: يوم بيوم بدر، ألاّ إن الأيام دول، وإن الحرب سجال.
فرد عليه عمر بأمر النبى: لا سواء، قتلانا فى الجنة، وقتلاكم فى النار!

فى أعقاب أحد
ومسيرة حمراء الأسد

كان المشهد فى ساحة أحد ـ بعد المعركة، مشهدًا حزينًا، يعج بجثث القتلى، وأشلاء الجرحى والممثل بأجسادهم.. حتى ثار البعض متوعدين قائلين: «لئن ظهرنا عليهم يومًا من الدهر لنمثلن بهم مُثلة لم يمثلها أحد من العرب بأحد قط»! بيد أن الوحى يتنزل على الرسول ﷺ، فيوحى إليه من كلمات ربه: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٦ ـ ١٢٨].

لم يصرف الحزن ـ لم يصرف رسول الله ﷺ عن تدبر الأمور، ففى الوقت الذى أشرف فيه على دفن القتلى وتطبيب ومواساة الجرحى، أرسل عليه السلام من يستوثق من أن قريشًا قد اتجهت مباشرة إلى مكة، وليس فى نيتها الإغارة على المدينة، وما إن فرغ عليه الصلاة والسلام من مواساة أسر الشهداء، وترتيب الأمور بالمدينة، حتى عزم على الخروج لغده فى أثر قريش فى ملاحقة تفرضها موجبات استرداد هيبة المسلمين، وإثناء قريش وإطلاعها على ما يكفها عن الاستطراد فى سرورها وتيهها وأمانيها أن تعاود الهجوم لاستئصال شأفة الإسلام والمسلمين، فضلا عن كف أمانى اليهود والمنافقين بالمدينة، لذلك فما إن أشرق صباح الغد من يوم أُحُد، وكان الأحد لست عشرة ليلة مضت من شوال ٣هـ، حتى أذن مؤذن النبى ﷺ فى المسلمين لاستنفارهم للخروج فى مطاردة الكفار، على ألاّ يخرج معه إلاّ من حضر أُحُد، فخرج المسلمون فى أثر قريش، وفيهم الأبطال الذين استماتوا بأمس رغم ما بهم من جراح، ومنهم طلحة بن عبيد الله،

وصاحبنا أبو عبيدة بن الجراح وباقى الأبرار المغاوير، ولم يأذن النبى ﷺ لأحد لم يحضرهم بأمس، إلا لجابر بن عبد الله الذى أبدى أنه كان حريصًا على حضور أُحُد، ولكن أباه إذ خرج فيها، فإنه تركه على أخوات سبع لا ينبغى تركهن وحدهن وهن نُسيّات ضعاف، واستحلف الرسول ﷺ أن يأذن له لينال الشهادة التى تمناها، فأذن له.

كانت عينا النبى عليه السلام، قريرتين بأصحابه هؤلاء الذين دعاهم للخروج معه فلبوا دعوته رغم جراحهم وآلامهم وقَرْحهم.. ويتنزل الروح الأمين على الرسول ﷺ فيوحى إليه من آيات ربه: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٧٢ - ١٧٤].

يمضى الرسول عليه الصلاة والسلام ومن معه فى أعقاب قريش، حتى وصلوا إلى حمراء الأسد وهى على موضع ثمانية أميال من المدينة عن يسار طريق المتجه إلى ذى الحليفة، فعثروا هناك على جثمانى شقيقين كان المسلمون قد أوفدوهما للاستطلاع، فوقعت عليهما قريش فصرعتهما وتركت جثمانيهما بالعراء بالصحراء، فصلى عليهما الرسول والمسلمون، ووارروهما بموضعهما فى قبر واحد. قبل أن يتفقد المسلمون المكان ليحطوا رحالهم ويضربوا مضاربهم فى الموضع الذى اختاروه - ليرصدوا ويراقبوا ماذا سوف تفعل قريش وأحلافها.

وفى الليل، يأمر النبى ﷺ أصحابه أن يكثروا من مواقد النار ما وسعهم الإكثار، ليوهم قريشًا وأحلافها أنهم جاءوهم فى حشد كبير وعدد وعدة.. ويقيض الله للمسلمين رجلاً شهمًا تعاطف معهم ومع الرسول ﷺ وإن كان لا يزال على الشرك، هو معبد الخُزَاعى.. مرّ على المسلمين بحمراء الأسد فى طريقه. وتحدث

إليهم، فلما مَرَّ بالروّحاء على أبى سفيان ومن معه، وسأله أبو سفيان عن شأن المسلمين الذين يرى مواقدهم، أجابه معبد: «إن محمدًا قد خرج فى أصحابه يطلبكم فى جمع لم أر مثله قط، يتحرقون عليكم تحرقًا، وقد أجمع معه من كان قد تخلف عنه، واجتمعت إليه الأوس والخزرج، وتعاهدوا ألاّ يرجعوا حتى يلحقوكم.. وكلهم أشد ما يكون عليكم حنقًا ومنكم للثأر طلبًا»!..

ولا بد أن أبا سفيان قد فكر طويلاً فيما سمع، وفيما توحى به مواقد النار التى أنارت الصحراء.. ولابد أنه تراوح بين الرجوع لمواجهة محمد والمسلمين، أو الفرار إيثارًا للسلامة.. ولا بد أنه فكر فى عواقب لو رجع إلى محمد فهزمه المسلمون، وكيف سيفسد عليه ذلك ما حققه يوم أُحُد من نصر يريد ألاّ يفسده ويريد أن تتسامع به العرب، ولا بد أنه فكر أيضًا فى عواقب الفرار لو تحدث به الركبان.. فلجأ أبو سفيان إلى الحيلة، وانتهز فرصة مرور ركب من عَبْد القيس يريدون المدينة، فأوعز إليهم أن ينقلوا إلى محمد أن أبا سفيان ومن معه قد أجمعوا السير إليه وإلى أصحابه ليستأصلوا بقيتهم.

بيد أن إرادة محمد ﷺ وأصحابه لم تهن ولم يضعف عزمهم لسماع ما أتى به ركب عَبْد القيس، فظلوا فى مضاربهم لا يريمون، ويوقدون النيران الكثيفة كل ليلة، لثلاث ليال، وهنت فيها عزيمة قريش، وتزعزعت همتهم، فآثروا العودة أدراجهم إلى مكة، ثم عاد الرسول ﷺ والمسلمون ـ بعد أيام ـ إلى المدينة وقد استردوا كثيرًا من المكانة التى أثر فيها يوم أُحُد، وتتخافت ضحكات اليهود والمنافقين، وتتوارى سخرياتهم!

أبوعبيدة الجندى فى سرية
أبى سلمة بن عبد الأسد إلى قَطَن

ما إن مَرّ شهران على أُحُد، إلا أتت الأخبار بأن طُلَيْحة بن خُوَيْلد الأسدى، وأخاه سَلمة، وكانا على رأس بنى أسد، قد أخذا يحرضان قومهما ومن أطاعهما

من القبائل، على التجمع للسير إلى محمد فى عقر داره، ومهاجمته بالمدينة، على أمل أن يصيبوا من أطراف المسلمين، ويغنموا منهم، يزين ذلك لهم الاعتقاد بأن يوم أُحُد قد ضعضع من المسلمين، وأنهم لم يبلوا بعد مما أصابهم فيه، ومن ثم فالفرصة سانحة للهجوم عليهم !

وعلى نظام ما نسميه اليوم بالحرب الوقائية، فكر الرسول عليه الصلاة والسلام، فى أن يرسل سرية تقى المسلمين مغبة هذا التجمع الجارى تدبيره لمهاجمتهم، فدعا ﷺ إليه ـ أبا سلمة بن عبد الأسد، وعقد له لواء سرية بلغ عددها مائة وخمسين، فيهم أبو عبيدة بن الجراح، وسعد بن أبى وقاص، وأسيد بن حضير.. ولم يستنكفّ أحدهم أن يكون ـ رغم مكانته وسابقته ـ جنديًا تحت قيادة أبى سلمة بن عبد الأسد.. وتقول الروايات: إن النبى ﷺ أمرهم بالسير ليلاً والاستخفاء نهارًا وسلوك طريق غير مطروق، حتى لا يطلع أحد على خبرهم، فيفجئوا المتجمعين المتأهبين لمهاجمة المدينة، بالإغارة عليهم على غرة قبل أن يأخذوا أهبتهم. وقد نفّذ أبو سلمة ومن معه، الأمر الصادر إليهم، وساروا مستخفين حتى انتهوا إلى أدنى قَطَن ـ من مياه بنى أسد، وما لبثوا حتى داهموا القوم بغتة وأحاطوا بهم فى عماية الصبح، فلم يستطع المشركون الصمود لهم فهربوا، وانعقد النصر للمسلمين، وعادوا للمدينة ظافرين بعد أن أجهضوا استعدادات طُلَيحة وبنى أسد للهجوم عليهم!

تصاعد الهجوم على المسلمين فى أعقاب أحد

[١] يوم الرجيع!

عَرْضُ ما تعرض له المسلمون فى أعقاب أُحُد، واجب لبيان بطلان الزعم بعدوانية الإسلام والمسلمين ـ وقد مر بنا أن أُحُدًا لم تكن غزوة كما جرت تسميات الأقدمين والمحدثين، وأن ما أعقبها لتلافى آثارها الضارة والحفاظ على هيبة المسلمين من المزيد من التجرؤ عليهم، كان مجرد مسيرات لم يجر فيها قتال،

وتورى الأحداث التالية لأُحُدُ، أن الكفار لم يدعوا المسلمين لحالهم، وجعلوا يحيكون لهم ويتآمرون عليهم. وقد روى الرواة أنه فى أواخر السنة الثالثة للهجرة، قدم على الرسول ﷺ بالمدينة، رهط من عَضَل والقارة، وهما حَيَّان من الهون بن خزيمة بن مدركة، ويقال إن ذلك كان بتحريض من بنى لِحْيان من هذيل، فزعموا للرسول ﷺ كما روى ابن إسحق وابن هشام، أن فيهم إسلامًا، وطلبوا أن يرسل معهم من أصحابه من يفقههم فى الدين، ويعلمهم شرائع الإسلام.. فبعث عليه الصلاة والسلام معهم عددًا من أصحابه، قيل فى رواية ابن إسحق إنهم كانوا ستة، وقيل تسعة، والستة المتفق عليهم هم: مَرْثد بن أبى المرثد الغَنَوى، وخالد بن البكير الليثى، وعاصم بن ثابت بن أبى الأقلح، وخُبَيْب ابن عَدىّ، وزيد بن الدَّثِنَّة، وعبد الله بن طارق.. وإذ هم فى الطريق للقيام بهذه المهمة الكريمة التى ادعى وفد القبيلة أنهم فى حاجة إليها، وعند «الرجيع» ـ وهو ماء لقبيلة هذيل بالقرب من الحجاز على صدر الهَدْأة: وهو موضع بين عسفان ومكة على نحو سبعة أميال من عسفان ـ غدروا بهم واستصرخوا عليهم قبيلة هذيل، فدفعت عليهم ما بين مائة ومائتين من الرماة وغير الرماة، فامتشق المسلمون الستة سيوفهم للدفاع عن أنفسهم، فزعمت لهم هذيل أنها لا تريد قتلهم، ولكنها تريد أن تأخذهم إلى مكة لتصيب ثمن تسليمهم، ولكن مرثدًا، وعاصمًا، وخالد بن البكير ـ صمموا على مقاتلة الغادرين، وقالوا إنهم لن يقبلوا عهدًا ولا عقدًا من مشرك غادر خادع، وخاضوا القتال حتى غلبتهم الكثرة فاستشهدوا، وأنقذت الأمطار والسيول التى اكتسحت المنطقة فى المساء ـ أنقذت رأس عاصم من أن تُؤْخذ هديةً إلى مشركى مكة، وتمكن الغادرون من أسر الثلاثة الباقين، وفى أثناء اقتيادهم إلى مكة، انتزع عبد الله بن طارق يده من الحبل المكبل به، ثم أخذ سيفه، ولكن القوم رموه بالحجارة وتجمعوا عليه حتى قتلوه، وتوجهوا بالأسيرين: خبيب بن عدى وزيد بن الدثنة إلى مكة، حيث بيع الأسيران لبعض الحاقدين من قريش الذين وتروا يوم بدر، فقُتِلَ كل منهما فى مشهد طويل على

مرأى من كبار قريش وغلمانها، سقط فيها كفار قريش سقطة شنيعة إلى هاوية لا تقرها الأخلاق ولا التقاليد العربية، بينما ضرب الشهيدان مثلاً رائعًا للصبر والبطولة، ويمكن للقارئ الرجوع إليه فى كتب السيرة وفى كتابى: «السيرة النبوية فى رحاب التنزيل» (٣/٢٠٥ ٢٢٣)..

[٢] يوم بئر معونة!

بينما المدينة غاصة بالأحزان على شهداء يوم الرجيع، يفكر المسلمون فيما ينبغى عليهم عمله للدفاع عن أنفسهم وعن الإسلام، وفى أحد أيام صفر للسنة الرابعة للهجرة (٦٢٥م) ـ دخل المسجد النبوى رجل مهيب مفتول، تبدو الخيلاء فى مشيته، هو مُلاعب الأسنة: عامر بن مالك بن جعفر.. سيد بنى عامر بن صعصعة.. سمى مُلاعب الأسنة لشجاعته ومهارته فى يوم «سربان».. وكان يومًا من أيام «جبلة» (هضبة عالية).. وهى أيام كانت بين قيس وتميم.. قصد الرجل لفوره إلى الرسول ﷺ، ليبتدره قائلاً بأنه جاءه بهدية، فلما أجابه النبى ﷺ بأنه لا يقبل هدية مشرك! قال ملحًا: يا أبا القاسم، هذه هدية لا يرفضها العرب!.. ومضى الرجل بعد أن أنصت مليًا إلى ما بسطه الرسول ﷺ عن الإسلام، فعرض أن يبعث معه النبىعليه الصلاة والسلام ـ رجالاً من أصحابه إلى قومه وأهل نجد ليدعوهم فعسى أن يستجيبوا لدعوته. فأبدى عليه الصلاة والسلام أنه يخشى عليهم أهل نجد، فجعل عامر بن مالك يؤكد أنه جار لهم ألاّ يعرض لهم أحد، وأخذ يلح فى إعطاء العهد على نفسه، حتى دعا الرسول ﷺ ـ صاحبه المنذر ابن عمرو أخا بنى ساعدة (المُعْنِق ليموت ـ أى المسرع للموت).. وهو لقب أطلقه عليه الرسول ﷺ تعبيرًا عن مسارعته للشهادة فى بئر معونة، كما سيأتى.. فعهد إليه النبى ﷺ أن يخرج فى نفر من خيار المسلمين.. فيهم الحارث بن الصمة، وحرام بن مِلْحان، وعُرْوة بن أسماء بن الصلت السلمى، ونافع بن بديل بن ورقاء الخزاعى، وعامر بن فهيرة مولى أبى بكر.. ومعهم عدد من شبان

الأنصار يسمونهم «القراء» لكثرة قراءتهم للقرآن وعكوفهم على دراسته، فينتدبهم عليه الصلاة والسلام للخروج مع عامر بن مالك للقيام بالمهمة السامية التى دعوا إليها.

ويقول الرواة: إنه بعد أيام حط الركب رحاله على «بئر معونة».. وهو ماء لبنى سُليم فى موضع بين أرض بنى عامر وأرض بنى سُليم.. وبَعَث المسلمون بصاحبهم حرام بن ملحان بكتاب رسول الله ﷺ إلى عامر بن الطفيل. بيد أن هذا الأخير ينحى الخطاب حين تقديمه إليه بمضارب قبيلته، ويعدو بغتة على «المبعوث» حرام بن ملحان فيقتله غيلة خلافًا لتقاليد تأمين الرسل والمبعوثين.. فيتصايح كثيرون من بنى عامر محتجين على قتل المبعوث وعلى النكث بجوار أبى براء عامر بن مالك، وينحاز إليهم شيخ من شيوخ بنى عامر، فيندفع عامر بن الطفيل معترضًا على خذلانه، بأنه سيلجأ إلى قبائل بنى سُليم: عُصية ورِعْل، وذَكْوان وزِعْب.. ليعدوا معه على المسلمين ليقتلوهم على بئر معونة!.. ويقول الرواة إنهم تكاثروا على البعثة حتى قتلوها عن آخرها، ولم يبق سوى المنذر بن عمرو، فقالوا له: إن شئت أمنّاك. فقال المنذر: لن أعطى بيدى ولن أقبل لكم أمانًا، وقاتلهم حتى قتل.. فلما بلغ ذلك رسول الله قال: «أعنق ليموت».. أى أسرع إلى منيته!

لم تكن الكارثة فقط فى النتيجة المحتومة لهجوم المئات المدججين بالسلاح على أربعين أو خمسين معظمهم من القراء، فى معركة غير متكافئة خلفت على الرمال مشاهد أشلاء الشهداء الذين تركوا بلدهم فى رسالة سامية، فأخذوا غيلة وقتلوا ببشاعة طارت بها الأنباء إلى رسول الله ﷺ والمسلمين فى المدينة، قبل أن تخف آلام من قتلوا يوم الرجيع وما تلاه بمكة!! ولكن الأثر المخيف، كان فى ردود أفعال وآثار هذا العدوان الغادر المتكرر على المسلمين، تتسامع به العرب، بما سوف يحمله ذلك من نُذُر المزيد من الاجتراء على الدعوة وضربها وإجهاضها وبث الرعب فى نفوس كل من يتقبل هدايتها ويرغب فى الإيمان بها والدخول فى باحة الإسلام!

[٣] مؤامرات اليهود
ويوم بنى النضير!

قد مر بنا بعض ما كان من مؤامرات اليهود مع المنافقين بالمدينة، وتنسيقهم مع كفار قريش لضرب الإسلام والمسلمين.. ومر بنا ما كان من بنى قينقاع فى أعقاب بدر، وانتهاء الأمر بإجلائهم عن المدينة بعد أن قامت عليهم الحجَّة وتوسط لهم ـ بجلافة ـ عبد الله بن أبى بن سلول، وتوسط لهم بأدب الصحابة ـ الأنصارى عبادة بن الصامت، فغادروا فى سلام.. إلّا أن من بقى من اليهود بالمدينة، من بنى النضير وبنى قريظة، لم يكفوا عن الكيد للرسول ﷺ والإسلام والمسلمين. وجعلت بنو النضير تمعن فى كيدها ومؤامراتها ودسائسها حتى دبرت لقتل الرسول عليه الصلاة والسلام، الأمر الذى أدى فى النهاية إلى إجلائهم عن المدينة فى أوائل السنة الرابعة للهجرة.. كان لذلك أسباب سابقة قديمة، وأخرى جديدة.. أما الأسباب السابقة، فكانت فيما وقع من مراسلات بين قريش واليهود لتحريضهم على المسلمين قبل بدر، وهى مراسلات وصلت إلى علم المسلمين[1]، ورجع اليهود والمنافقون عما كانوا قد أزمعوه. وتفرقوا بعد لقاء الرسول ﷺ بهم فى جماعة من أصحابه، وبعد أن قال لهم وعلى رأسهم عبد الله بن أبى بن سلول: «لقد بلغ وعيد قريش منكم المبالغ، وما كانت (قريش) لتكيدكم بأكثر مما تريدون أن تكيدوا به أنفسكم، تريدون أن تقاتلوا أبناءكم وإخوانكم»!.. فلما سمعوا ذلك من النبى ﷺ تفرقوا، وآثروا السلامة.

فلما بلغ ذلك كفار قريش، كتبوا بعد وقعة بدر إلى اليهود: «إنكم أهل الحلقة والحصون، وإنكم لتُقاتلنَّ صاحبنا (محمدًا) أو لتفعلنَّ كذا وكذا، ولا يحول بين خَدَم (جمع خدمة وهى الخلخال) نسائكم شىء». فلما بلغ اليهود هذا الكتاب، اجتمعت بنو النضير على هذا الغدر، وطلبوا لقاء الرسول ﷺ فى

---

(١) سبل الهدى والرشاد فى سيرة خير العباد ـ محمد الصالحى الشامى ٤/٤٥١.

ثلاثين من أصحابه، مقابل ثلاثين من أحبارهم، ليتحاوروا ويلتقوا على أمر بينهم وبينه، ثم احتالت بنو النضير فطلبوا من النبى ﷺ أن يخرج إليهم فى ثلاثة من أصحابه، ويخرجوا إليه ثلاثة من علمائهم، حتى يكون الحوار أسهل، بينما أخفى بنو النضير خناجرهم فى ثيابهم وأزمعوا الفتك بالرسول عليه السلام، ولكن امرأة ناصحة من بنى النضير بعثت إلى أخيها وكان قد أسلم، تخبره بما أضمره بنو النضير، فسارع بخبرهم إلى رسول الله ﷺ، فانصرف بمن معه قبل أن ينفذ بنو النضير ما دبروه من الغدر!

ولم تنقطع بنو النضير عن الكيد والتآمر على الإسلام والمسلمين، وقد مَرّ بنا أن زعيمهم سلام بن مشكم استقبل أبا سفيان وتناجيا طوال الليل ودله كيف يمكن أن يهاجم المسلمين من خلفهم على أطراف المدينة، فكانت الغارة التى شنها أبو سفيان وتعقبهم المسلمون بعدها فيما سمى بغزوة السويق! ثم كانت أُحُدُ، وما تلاها من إغارات على أطراف المدينة، وائتمار طليحة الأسدى وقومه، وغير ذلك من التجمعات التى استهدفت المسلمين ثم انفضت لدى خروج المسيرات إليهم.. كان هذا وما جرى يوم الرجيع، ثم فى بئر معونة، داعيًا يهود بنى النضير إلى المزيد من الكيد والتآمر، ومنبهًا المسلمين ـ فى الوقت ذاته ـ إلى وجوب حسم الأمور ليظهر النفاق من الصدق، ويتحمل كل طرف مسئوليته من واقع نواياه وما يخفيه ويدبره بليل من وراء الأستار. ولما كان النبى ﷺ قد لام عمرو بن أمية الضمرى لومًا شديدًا على قتله رجلين من بنى عامر لم يكن النبى قد أجارهما، وأعلن عليه السلام أنه سوف يؤدى الدية إلى قومهما، فإنه أراد امتحان بنى النضير فى نواياها، وكانوا حلفاء لبنى عامر، فذهب عليه السلام فى عشرة من أصحابه فيهم أبو بكر وعمر وعلى ـ إلى بنى النضير، يطلب إليهم المعاونة فى دية القتيلين.

كان هذا هو السبب المستجد، وتقول الروايات: إن بنى النضير أضمرت يومها قتل الرسول ﷺ وقد جاء مسالمًا فى أصحابه بين ظهرانيها، فأظهروا الموافقة وقالوا للرسول: «نفعل يا أبا القاسم ما أحببت»، بينما قالت لهم شياطينهم إنها

فرصة لا بد من اهتبالها.. فهى لن تتاح لهم ثانية، فالنبى عليه الصلاة والسلام جالس فى أصحابه بأسفل بيت من بيوتهم، ومن السهل قتله غيلة، فأوعزوا إلى أحدهم، ويدعى عمرو بن جَحَّاش بن كعب، أن يصعد إلى سطح البيت الذى يجلس الرسول ﷺ وأصحابه تحته، ليلقى منه صخرة كبيرة على الرسول ﷺ.

ولكنه عليه الصلاة والسلام أتاه الهاتف بأن شرًّا يحاك له، فأبدى أنه يريد شيئًا فاته ونهض ليحضره، ولكنه رجع إلى المدينة، بينما كان بنو النضير غافلين عن ذلك، يرتبون أمرهم، ويرفضون مشورة صاحبهم سلاَّم بن مشكم الذى أراد نهيهم عن هذا التدبير، وقال لهم: «يا قوم أطيعونى هذه المرة وخالفونى الدهر، والله لئن فعلتم لَيُخْبَرَنّ بأنَّا قد غدرنا به، وأن هذا نقض للعهد الذى بيننا وبينه، فلا تفعلوا»[1].

وإنهم لفى جدلهم، وعمرو بن جَحَّاش قد هيأ الصخرة لإلقائها على الرسول عليه السلام، إذ جاء يهودى من المدينة، فلما رأى قومه يتناجون، سألهم: ما تريدون؟ قالوا: نريد أن نقتل محمدًا ونأخذ أصحابه! فقال لهم: وأين محمد؟ قالوا: هذا محمد قريب. فقال لهم صاحبهم: والله لقد تركت محمدًا داخل المدينة!.. حينذاك أسقط فى أيديهم، بينما انكشف للرسول ﷺ والمسلمين ستر ما دبره بنو النضير وأوشكوا أن يقارفوه!

ندمت اليهود على ما ظهر وانكشف من أمرها، وعَضَّها الخوف من نتائج غدرها الذى افتضح ستره، ويقال إن الرسول عليه الصلاة والسلام قد بدأ بإعذارهم، فأرسل إليهم محمد ابن مسلمة يطلب إليهم أن يغادروا المدينة بعدما كان منهم، ونقضهم العهد الذى أعطاه النبى ﷺ لهم، وشروعهم فى قتله غيلة وغدرًا وهو فى بيوتهم!!

وبينما يهود بنى النضير يتفكرون فيما أُتاهم من إعذار، ويميلون إلى الجلاء وإيثار السلامة، أرسل إليهم عبد الله بن أُبى بن سلول، مبعوثين موفدين من

---

(١) سبل الهدى والرشاد فى سيرة خير العباد ٤/٤٥٣.

قبله، يحرضهم على البقاء والقتال، ويعدهم بأن معه ألفين من قومه ومن العرب سينضمون إليهم فى حصونهم لمدافعة المسلمين، فضلاً عن إمداد يهود بنى قريظة، وحلفاء ابن سلول من غطفان، ويقال إنه على نقيض ذلك نصح سلاَّم بن مشكم قومه يهود، ولام حُيى بن أخطب على تحريضه بنى النضير، وأشار عليهم بقبول السلام الذى أعطاه لهم الرسول الذى يعرفون صفته عندهم، بأن يخرجوا من بلاد العرب فى سلام[1].

فلما انتهت مهلة المسالمة، وغلب منطق المنافقين والمحرضين، خرج النبى ﷺ فى أصحابه من المهاجرين والأنصار، وفيهم صاحبنا أبو عبيدة بن الجراح الذى شهد المشاهد كلها مع رسول الله، إلى حصون بنى النضير، وضربوا مضاربهم ورابطوا حولها، ولم تفلح قذائف بنى النضير ورميهم الحجارة وإطلاقهم النبال والسهام، فصبر المسلمون وجالدوا فى درء ما كانوا يُقْذفون به من وراء الحصون؛ وأيقن اليهود أنه لن تلين لهؤلاء المجاهدين قناة ولا إرادة، وبعد ست ليال، انكشف فيها كذب وعود حُيى بن أخطب، واستبان إحجام بنى قريظة عن المساندة، وعدم تقدم أحد من العرب لنجدتهم كما وعدهم بن أبىّ بن سلول، لم يجد يهود بنى النضير بدًا من أن يسألوا الرسول ﷺ أن يؤمنهم على أموالهم ودمائهم وذراريهم حتى يخرجوا من المدينة، فصالحهم عليه السلام على أن يخرجوا، ولكل ثلاثة منهم بعير يحملون عليه ما شاءوا من مال أو طعام أو شراب، واحتمل اليهود ما شاءوا وعلى رأسهم حُيى بن أخطب، ويُروى أنهم خرجوا ومعهم الدفوف والمزامير، والقيان يعزفن خلفهم إظهارًا للتجلد، وصف لهم الناس فجعلوا يمرون قطارًا فى أثر قطار، وحزن المنافقون لخروجهم حزنًا شديدًا، ونزل أكثرهم بخيبر ومنهم حُيى بن أخطب، وسلاَّم بن أبى الحقيق، بينما سار آخرون إلى أذْرعات بالشام.

---

(١) سبل الهدى والرشاد فى سيرة خير العباد ٤/٤٥٦ ـ ٤٥٩.

المسيرات الدفاعية لاحتواء الأثر وبث الهيبة

قد رأينا ما تعرض له المسلمون تباعًا منذ أُحُد. ولم يكن من الممكن أن يسكتوا على ضربات الكفار بغير رد يوقف محاولاتهم إجهاض الدعوة والصد عن سبيل الله.. وحين نفهم ذلك، يتضح لنا كيف أن المسلمين لم يكونوا طلاب حرب أو هواة قتال، أو أن السيف كان أداتهم لفرض الإسلام.. فقد بدأت الدعوة مادةً أيديها بالسلام وداعية إلى التوحيد والهداية بالحكمة الموعظة الحسنة.. فحوصرت وعذب المسلمون وأجبروا على الهجرة والخروج من بلدهم وترك ديارهم وأموالهم.. وأرادوا أن يواصلوا فى مهجرهم الدعوة إلى سبيل الله. فشنف لهم اليهود والمنافقون بالمدينة، وعادتهم قريش واستعدت عليهم، وشن الكفار من وقت لآخر غارات على أطراف المدينة، ولجأوا للخيانة والغدر بقتل من سألوهم أن يذهبوا معهم أو إليهم للهداية والتفقيه فى الدين، ولا مراء فى أن السكوت على هذا العدوان المتكرر تفريط فى الحق، وتفريط فى واجب حماية الدعوة من الصد عن سبيلها، ويؤدى إلى بث الرعب فيمن يهديه قلبه وضميره إليها..

غزوة بنى لِحْيان

لذلك تحرك المسلمون للدفاع عن أنفسهم واحتواء الأثر الذى أراد الكفار محاصرة الدعوة به، فيقول الرواة: إن رسول الله ﷺ خرج بنفسه فى جمادى الأولى للسنة الرابعة للهجرة فيما سمّى بغزوة بنى لِحْيان.. وخرج معه المهاجرون والأنصار وفيهم صاحبنا أبو عبيدة بن الجراح الذى أجمعت المصادر على أنه حضر المشاهد كلها مع رسول الله.. خرجوا فى طلب أصحاب الرجيع، الذين غدروا بالمسالمين الذين ذهبوا معهم للهداية التى طلبوها وتركوا جثامينهم عارية مكشوفة بالصحراء نهبًا للوحوش والكواسر، واقتادوا المأسورين غدرًا: خُبيب بن عدى وزيد بن الدثنة، ليسلما إلى موتورين من قريش يقتلانهما قتلة بشعة!

خرج الرسول عليه السلام بمن معه من هؤلاء المجاهدين الأبرار، فسلكوا شمالاً طريق الشام حتى لا تعرف العيون وجهتهم، ثم التفوا إلى أرض بنى لِحْيان ـ وهم من هذيل، فوجدوهم قد أخذوا حذرهم وفروا جبنًا إلى حيث تمنعوا فى رءوس الجبال. فأراد النبى ﷺ أن تصل رسالة هذه المسيرة إلى قريش، فقال لأصحابه: «لو أنا هبطنا عُسْفان لرأت قريش أنا قد جئنا مكة»، وتابع عليه الصلاة والسلام مسيرته فى مائتى راكب من أصحابه حيث نزلوا عُسْفان، ومن هناك بعث بفارسين إلى كراع الغميم.. وهو وادٍ على ثمانية أميال من عُسْفان، ليصل خبر المسيرة إلى قريش التى تواطأت فى هذا الغدر الذى كان يوم الرجيع، وقتلت المغدور بهما: خبيبًا وزيدًا، شر قتلة على مشهد من القرشيين وأهل مكة!!

غزوة ذات الرقاع

ما كاد المسلمون يعودون من المرابطة على حصون بنى النضير الذين جلوا عن المدينة، حتى أتت الأخبار بجمادى الأولى فى أوائل السنة الرابعة للهجرة ـ بأن غطفان قد جمعت جموعًا بنجد هى وبنو محارب وبنو ثعلبة يريدون مهاجمة المسلمين، فشاور النبى ﷺ صحابته من المهاجرين والأنصار، فاستقر الرأى على أخذ المبادرة بالمسير إليهم، فتجهزوا وتجمعوا بظاهر المدينة للخروج إلى نجد.. وهى على نحو مرحلتين من المدينة، وبعد يوم من المسير، حطوا الرحال فى «نخل».. وهى موضع بنجد من أرض غطفان.. يطل عليه جبل قريب من النخيل.. وفى الجبل بقع حمراء، وأخرى سوداء، وبيضاء.. وفى المكان شجرة يقال لها ذات الرقاع اعتاد بعض العرب أن يتعبدوها فى الجاهلية، وكل من له فيهم حاجة يربط فيها خرقة أو رقعة، ومن هنا كانت التسمية.

جعل الصحابة، وفيهم صاحبنا أبوعبيدة، يتفقدون المكان، فاكتشفوا أن الجموع التى كانت قد احتشدت للهجوم عليهم، بادرت بالهروب إلى رءوس الجبال حين أحست بطلائع المسلمين ، ويقال إن غطفان وأحلافها عادوا فتجمعوا، ووقفوا

مشققين من قتال المسلمين الذين لم يجدوا حاجة إلى أن يبدأوا هم بقتال.. ويقال إنه حين نودى للصلاة بين المسلمين، وخشوا من أن يكر عليهم العدو المشرف عليهم، صلى النبى عليه السلام بأصحابه صلاة الخوف، ونزلت فيها الآية (١٠١) من سورة النساء، فقام عليه السلام بقسمة المسلمين شطرين.. جعل شطرًا فى مواجهة العدو الرابض، وشطرًا خلفه ـ ﷺ ـ وبدأ فكبّر وكبّر الجميع وراءه، ثم صلى بمن خلفه ركعتين وسلم، ثم صلى بالشطر الأمامى ركعتين وسلم..

وقد وصف أبو عبيدة بن الجراح، صلاة الخوف التى صلاها بهم النبى ﷺ فى هذا اليوم، فجاء فى مسند الإمام ابن حنبل، بسنده عن أبى عبيدة: كنا مع رسول الله ﷺ فصف صفًا خلفه، وصفًا موازى العدو، وقال إنه ﷺ كبّر وكبّروا جميعًا، فصلى بالصف الذى يليه ركعة، وصف موازى العدو، ثم ذهب هؤلاء وجاء هؤلاء، فصلى بهم ركعة، ثم قام هؤلاء الذين صلى بهم الركعة الثانية فقضوا مكانهم، ثم ذهب هؤلاء إلى مصاف هؤلاء، وجاء أولئك فقضوا ركعة. وقد قيل إن إسناده ضعيف لانقطاعه.

وفى رواية أخرى مسندة إلى أبى عبيدة بن الجراح بمسند الإمام ابن حنبل، قال: صلى بنا رسول الله ﷺ صلاة الخوف، فقاموا صفين، فقام صف خلف النبى ﷺ، وصف مستقبل العدو، فصلى رسول الله ﷺ بالصف الذى يليه ركعة، ثم قاموا فذهبوا فقاموا مقام أولئك مستقبل العدو، وجاء أولئك فقاموا مقامهم فصلى بهم رسول الله ركعة ثم سلم ثم قاموا لأنفسهم ركعة ثم سلموا ثم ذهبوا فقام مقام أولئك مستقبل العدو، ورجع أولئك إلى مقامهم فصلوا لأنفسهم ركعة ثم سلموا. وقيل حديث صحيح.

وبعد يومين، وقد تحقق للمسلمين ما أرادوه من إظهار الهيبة لمن أرادوا مهاجمتهم، وآثرت غطفان وأحلافها السلامة، عاد المسلمون سالمين إلى المدينة بغير قتال.

بدر الموعد

وكانت فى شعبان للسنة الرابعة للهجرة، طبقًا لرواية ابن إسحق وأرجح الروايات، وسميت بدر الموعد، لأنها كانت موعدًا مضروبًا بين المسلمين وقريش بناء على طلب أبى سفيان يوم أُحُد.. وكان الاتفاق على اللقاء فى بدر الصفراء.. حدده أبو سفيان وهو فى قمة نشوته مما حققوه فى أُحُد، فوقف يومها ينادى: «موعد بيننا وبينكم بدر الصفراء رأس الحول، نلتقى فيه فنقتتل»!

ومع أن المسلمين تلاحقت عليهم الأحداث بعد أُحُد وحمراء الأسد، بين خيانات يوم الرجيع وبئر معونة، وبنى النضير وما كان منهم، والمسيرات المتتالية لصد من كانوا من القبائل قد تجمعوا لمهاجمة المسلمين، فإنهم لم يشاءوا أن يتخلفوا عن الموعد الذى ضربته قريش، ولم تأخذ المشاورة بين النبى ﷺ وصحابته كثيرًا حتى اتفقوا جميعًا على الخروج إلى بدر الصفراء، أو بدر الموعد.

وعلى النقيض، كان أبو سفيان وقريش على خوف ضارب فى أعماقهم أن يخسروا ما كسبوه فى أُحُد إذا خرجوا لبدر الصفراء، وإنهم لفى حيرتهم، تلقفوا نُعيم بن مسعود الأشجعى الذى نزل مكة، فلما أحاطهم بأنه ترك المسلمين بالمدينة يعدون السلاح والكراع، خشى أبو سفيان من مغبة اللقاء، وجعل يتعلل بأن العام عام جدب لا يصلح للخروج، ولكنه يكره أن يخرج محمد وأصحابه ولا تخرج قريش، فيجترئون عليها، فطفق أبو سفيان يحرض نُعيَم بن مسعود الأشجعى على العودة للمدينة وتخذيل المسلمين هناك، ويمنيه بهدية كبيرة توضع له لدى صديقه سهيل بن عمرو، وأنه يضمنها له.. وليس عليه إلّا أن يلحق بالمدينة ليثبط المسلمين ويعلمهم أن قريشًا قد تجهزت لهم فى جمع كبير.

ويروى الرواة أن نُعيَم بن مسعود الأشجعى لم يقصر يومها فى مهمته، فجعل لدى وصوله للمدينة، يردد للمهاجرين والأنصار أنه ترك أبا سفيان قد جمع الجموع وأجلب معه العرب، وأنه سيأتيهم بما لا قبل لهم به، وجعل يظهر إليهم النصيحة أن يقيموا ولا يخرجوا فلن يفلت منهم إلّا الشريد!

على أن ما سعى إليه نعيم، واستبشر به المنافقون ويهود بنى قريظة، لم يفت فى عضد المسلمين، فخرجوا ـ كما سلف ـ إلى حيث تجمعوا بظاهر المدينة، وفيهم إلى جوار الرسول ﷺ كبار الأنصار والمهاجرة، ومنهم صاحبنا أبو عبيدة ابن الجراح، ميممين شطر بدر الصفراء.

ولم تجد قريش بُدًّا من الخروج بعد أن تأكد لها إخفاق التخذيل الذى حرضت عليه الغطفانى، فخرجت كارهة فى نحو ألفين ومعهم خمسون فارسًا، فنزلوا «مَجَنّة» من ناحية «الظَّهران»، وضربوا مضاربهم متظاهرين بأنهم جاءوا مصممين على الموعد الذى ضربوه يوم أُحُد.

وإن قريشًا لفى مضاربها، يأتيها معبد بن أبى مسعود الخزاعى. فينقل إليها أنه مر بالمسلمين ببدر الصفراء، بعد أن أخبره عنهم مخشى بن عمرو الضمرى، وأنه وجدهم أهل هذا الموسم.. وأنهم تجمعوا فى كثرة كثيرة بقضهم وقضيضهم.. فخشى أبو سفيان من مغبة اللقاء إذا دارت عليهم الدائرة، فوقف يقول لقريش: «يا معشر قريش.. لا يصلحن إلّا عام خصب غيداق، نرعى فيه الشجر ونشرب فيه اللبن.. وإن عامكم هذا عام جدب.. وإنى راجع فارجعوا».

بادر القرشيون بلملمة متاعهم وجمع عيرهم، وتسللوا راجعين إلى مكة، بينما لبث المسلمون ببدر الصفراء ثمانية أيام، قبل أن يعودوا إلى المدينة وقد أوفوا بموعدهم وتراجعت قريش وقامت عليها الحجة.

آب المهاجرون والأنصار مع الرسول ﷺ، آمنين سالمين مجبورين إلى المدينة، وعين الرسول قريرة بأصحابه، يتذاكر عليه السلام ويتحرك لسانه بما أنزله إليه جبريل عليه السلام: ﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾[آل عمران: ١٧١ ـ ١٧٤].

دومة الجندل

فى ربيع الأول بأوائل السنة الخامسة للهجرة، وردت الأخبار بأن دومة الجندل بالشام، شمال المدينة، قد صارت مركز تجمع لقبائل قست قلوبها وأخذت تبث المظالم وتقطع طرق القوافل، وتظلم من يمر بها!!.. وأنه لم يكفهم أنهم يتعرضون لتجار الأنباط الذين يحملون الميرة والزيت والدقيق إلى المدينة، وإنما تزايدت أطماعهم حتى باتوا يفكرون فى تهديد أطراف المدينة!

تشاور النبى عليه السلام مع صحابته، وقر الرأى على أن كسر شوكة هؤلاء يوقف الأخطار التى تتهدد المدينة وقوافل التجارة الخارجة منها أو القادمة إليها، ويكسر زهو قيصر الذى يتزايد يومًا بعد يوم.. عزم النبى ﷺ على الخروج، وترك على المدينة سِبَاع بن عُرفطة الغفارى، وخرج معه عليه السلام نحو ألف من أصحابه، وفيهم أبو عبيدة بن الجراح، وكانوا يسيرون ليلاً ويكمنون نهارًا، ومعهم دليل ماهر من بنى عُذرة يقال له «مَذْكور العُذْرى».. وكان هذا الدليل خبيرا بهذه البقاع، وساروا حتى وصلوا إلى دَوْمة الجندل، وهناك بث المسلمون سراياهم، وعاد محمد بن مسلمة برجل من القوم، فأتى به إلى النبى ﷺ فسأله عن أصحابه، فأجابه بأنهم هربوا بأمس لما سمعوا بمقدمه، فأكرم المسلمون وفادته، وعرض الرسول الإسلام عليه أيامًا فأسلم، ثم عاد المسلمون بلا قتال، وفى طريق عودتهم وادع ﷺ عُيَيْنة بن حِصْن الفزارى، أن يرعى بِتَغْلِمين - وهى موضع فى بنى فزارة - وما والاها إلى «المراض» - وهى واد على ستة وثلاثين ميلاً من المدينة - بسبب أن بلاد «عُيَيْنة» كانت قد أجدبت، فصرح له الرسول عليه السلام أن يرعى بِتَغْلِمين إلى المراض.

فى غزوة الخندق أو الأحزاب
(شوال سنة ٥ هـ)

جرت تسمية هذه الغزوة بغزوة الخندق، تعبيرًا عن الخندق الذى حفره المسلمون حول المدينة لصد هجوم الأحزاب الذين أتوا لضرب الإسلام والمسلمين بالمدينة، فهى لم تكن غزوة من المسلمين بل كانت دفاعًا حول المدينة عن دار هجرتهم، وإن سمّيت غزوة، وإنما كانت غزوة من الكفار الذين تآمروا وتجمعت أحزابهم لاستئصال الإسلام، ومن هنا سمّيت بغزوة الأحزاب.. وهى القبائل التى هذه الغزوة، أنها كانت «غزوة اليهود» الذين حركوا الأحداث وجمعوا القبائل وحرضوها للهجوم على المدينة.. فاليهود واقعًا هم أصحاب ومدبرو ومرتبو ومعدو هذه الغزوة.. ومن الغريب اللافت أن يحسبها بعض المستشرقين ضمن الغزوات التى يحصون عددها على الإسلام بزعم أنه دين غزو، وأنه انتشر بحد السيف!

ويجمع الرواة على أن اليهود، وخاصة بنى النضير الذين أجلوا عن المدينة فى أعقاب أُحُد وحمراء الأسد، هم أصحاب فكرة هذه الغزوة (اليهودية) التى تسترت بالقبائل العربية ـ وعلى رأسها قريش التى استجابت لتحريضها.. فيروى أن لفيفًا من أشراف اليهود ووجوه بنى النضير.. فى مقدمتهم حيى ابن أخطب وأبو رافع سلام بن أبى الحقيق، وكنانة بن أبى الحقيق، وهوذة بن أبى الحقيق، ومعهم هوذة بن قيس الوائلى من الأوس بن بنى خطمة، وأبو عامر الراهب، وأبو عمارة، ونفر من بنى وائل، قد جمعوا أمرهم وشدوا الرحال للقاء زعماء قريش التى يعلمون أنها لن يهدأ لها بال حتى تستأصل شأفة محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ والإسلام!

وفى دار الندوة، بظاهر الكعبة، التقى هؤلاء مع أبا سفيان وجمعًا من بعض زعماء قريش، حيث طفق زعماء بنى النضير يبثون مرامهم، ويتعاهد هذا الملأ على قتال محمد ﷺ ويقرنون هذا الحلف بالدخول إلى الكعبة والالتصاق بأستارها

والقسم على ألاَّ يخذل بعضهم بعضًا، ولا يغادر اليهود ومن معهم إلاَّ بعد أن يتواعدوا مع قريش على موعد ضربوه لتحزيب القبائل العربية لتكون معهم فى مداهمة الرسول عليه السلام والمسلمين بالمدينة.

بادر الرهط اليهودى، فذهبوا إلى غطفان، من قيس وعيلان، فدعوهم إلى حرب الرسول عليه السلام، وحرضوهم مؤكدين لهم أنهم وقريشًا سوف يكونون معهم، فوعدوهم وبنى سليم بالسير معهم إذا خرجت قريش، بينما لم يضيع زعماء قريش وقتًا، فجعلوا يحرضون على الخروج، وأوفدوا وفودهم إلى القبائل، فجاءت الأخبار بأنهم لبوا النداء وسوف يخرجون، وعقدت قريش اللواء لعثمان بن طلحة، وتحركوا من شمال مكة باتجاه المدينة فى ثلاثمائة فرس ونحو ألف وخمسمائة بعير.. على رأسهم أبو سفيان.. تخايله أحلامه وهو ينظر فى خيلاء إلى الجموع التى أربت مع من تبعهم من الأحابيش على أربعة آلاف مقاتل!

وعند «مَدّ الظهران»، التقت جموع قريش بنى سليم التى خرجت فى نحو سبعمائة يقودهم سفيان بن عبد شمس حليف حرب بن أمية، وهو أبو أبى الأعور.. واستأنفوا السير معًا للقاء باقى الأحزاب على أطراف يثرب.

وعلى طرق الاقتراب من المدينة، تجمعت الأحزاب والقبائل التى حرضتها اليهود ـ برجالها وفرسانها وقضها وقضيضها.. قبيلة بنى الأسد بقيادة طلحة ابن خويلد الأسدى! وقبيلة غطفان فى نحو ألف دارع يقودهم عيينة بن حصن ابن حذيفة! وأشجع فى نحو أربعمائة فارس ودارع يقودهم مسعود بن رخيلة! وبنو مرة فى نحو أربعمائة يقودهم الحارث بن عوف بن أبى حارثة.. حيث بادرت هذه الجموع، فور التقائها، إلى التحرك ملتفة إلى شمال المدينة حيث موعد ومكان اللقاء مع بنى النضير الآتية من خيبر، واختاروا هذا المكان بتحريض اليهود الذين دلوهم على أنه أنسب مكان لمهاجمة المدينة!

وبشمال المدينة، فى بطن جبل أُحُد وما حوله، تجمعت قبائل الأحزاب، بأقصى الشمال إلى يسار أُحُد ضربت قريش مضاربها هى ومن معها من الأحابيش

ـ «برومة» ووادى العقيق بين «الجرف» و«زغابة».. بينما عسكرت غطفان إلى يسار وجنوب مضارب قريش، وإلى يسارها إلى الجنوب قليلًا قوات كنانة وسليم وبنى أسد وفزارة وأشجع وبنى مرة وبقية الأحزاب الذين نيفت عدتهم على عشرة آلاف فارس ودارع أخذوا يتهيئون للهجوم على المسلمين!!

وفى المسجد النبوى بالمدينة. وبعد أن تجمعت الأنباء بحشود القبائل، التقى رسول الله ﷺ كبار صحابته من الأنصار والمهاجرين، فاستقر الرأى، على أنه لا سبيل للأحزاب للإغارة على المدينة إلّا من الناحية المكشوفة من الشمال.. وهو المكان الذى دلّت الأخبار على أن الأحزاب أخذت تتجمع فيه.. فطفق المسلمون يتجمعون حول رسول الله.. وإنهم لفى مشاوراتهم عما عساه أجدى لصد هؤلاء المتربصين، أشار سلمان الفارسى بحفر خندق بشمال المدينة ـ جعل يصف كيف كانوا يحفرونه بأرض فارس إذا تخوفوا الخيل، فلقيت فكرته ترحيبًا من الرسول ﷺ والمسلمين.

وبعد استطلاع المنطقة فى اتجاه تجمع حشود الأحزاب، اختار المسلمون للخندق المسافة من «مذاذ»: أطم لبنى حرام بن سلمة غربى مسجد الفتح شمال المدينة، إلى «ذباب» إلى «راتج»: جبل إلى جبل بنى عبيد غربى بطحان.. هذا وفى الوقت الذى طار فيه المسلمون لجمع المكاتل والمعاول للحفر، تسرب المنافقون متسللين عائدين إلى دورهم فى انتظار الشماتة التى أضمرتها قلوبهم!

لم يكن حفر الخندق الذى اشترك فيه رسول الله ﷺ بنفسه، بأقل من صور البطولة الرائعة التى سطرتها صفحات هذه الملحمة، فقد طويت هذه الغزوة التى دبرها اليهود وتزعمتها قريش ـ على صفحات بطولة رائعة سطرها المسلمون وشارك فيها صاحبنا المجاهد الأمين أبو عبيدة بن الجراح، فى حفر الخندق لإقامة عائق حول المدينة لصد الكفار عن اقتحامها.. وطوال فترة الحصار الذى جرت فيه مناوشات وهجمات من الكفار لاختراق الخندق، وصدّها المسلمون فى بطولة باسلة صورتها مشاهد عديدة. فيها من أصيب وجرح، وفيها من

أصيب ـ كسعد بن معاذ ـ بسهم أدى من بعد إلى وفاته، ولكنهم ظلوا بكل ما بهم من جراح، وما يعانونه من مرابطة وراء الخندق داخل المدينة، أو فى باقى الثغور المحيطة احتياطًا لأى التفاف للاختراق.. ظلوا على صمودهم وجهادهم، تاركين بيوتهم وعائلاتهم من خلفهم، منصرفين إلى حمل الأمانة التى احتملوها من يوم أن أعطوا ظهورهم للدنيا ومغرياتها وزينتها وشهواتها، وآمنوا بالله الواحد الأحد، وهاجروا إليه، وجاهدوا فى الله حق جهاده لحماية هذه الدعوة من طغيان الكفار الذين أرادوا إطفاءها!

وإن المسلمين لفى مرابطتهم ودفعهم لغارات الكفار المتتالية، فى المواضع التى ظن الكفار أن بها ضعفًا، أو عدم كفاية فى الحراسة، لم يتوقف يهود بنى النضير عن استكمال مؤامرتهم وتحزيبهم ضد المسلمين. خرج كبير بنى النضير: حُيى بن أخطب، فتسلل إلى حصون بنى قريظة للقاء زعيمهم كعب بن أسد القرظى.. وتقول الروايات إن كعبًا أوجس منه خيفة، وقال له: ويحك يا حُيى: «إنك امرؤ مشئوم، وإنى قد عاهدت محمدًا، فلست بناقض ما بينى وبينه، ولم أر منه إلا وفاءً وصدقًا».. وما زال الشد والجذب بينهما حتى استدرجه حُيى قائلاً: «ويحك يا كعب، جئتك بعزِّ الدهر ببحر طام (مرتفع)، جئتك بقريش على قادتها وسادتها، حتى أنزلتهم بمجتمع الأسيال من «رومة»، وبغطفان على قادتها و سادتها، حتى أنزلتهم إلى جانب أُحُد.. قد عاهدونى وعاقدونى على ألا يبرحوا حتى نستأصل محمدًا ومن معه».. فقاومه كعب قليلاً، إلا أن ابن أخطب لم يزل به يحضه ويغريه حتى لان فى النهاية لما يريده منه!

أتت الأخبار إلى النبى عليه السلام بأن يهود بنى قريظة قد نقضوا العهد، وبعث الرسول ﷺ الزبير بن العوام للاستيثاق من ذلك، ثم جمع النبى إليه السعدين: سعد بن معاذ، وسعد بن عبادة، ومعهما أسيد بن حضير وعبد الله ابن رواحة، فأنهى إليهم ما وصله من أنباء، عن نقض بنى قريظة لعهدهم، وعزمهم الاشتراك فى محاربة المسلمين، واتفقت الآراء على أن يذهب هؤلاء

الأربعة إلى حصون بنى قريظة لمقابلة كعب بن أسد وبنى قومه من اليهود.. وهناك ظهر من الخزى الذى بدا عليهم أنهم بالفعل نقضوا عهدهم، فطفق أسيد ابن حضير ومن معه يناشدونهم أن يحترموا العهد الذى أبرمه الرسول ﷺ معهم، وألاّ يطيعوا حُيى بن أخطب، لكن كعب بن أسد يمضى فى تناكثه، ولا يعى تحذيره بأن قريشًا إذا انصرفت منهزمة فستتركه وحيدًا فى عقر داره، وجعل يرد مستكبرًا بما كان منه يوم بُعاث، ويستطرد هو واليهود فى تطاولهم حتى أيقن وفد الرسول ﷺ بأنه لم يعد لإثنائهم عن الخيانة من سبيل!

كان حصار الأحزاب للمسلمين امتحانًا طال أمده، وإلى جانب البطولات التى سطرها المجاهدون الأبرار، وفيهم صاحبنا أبو عبيدة بن الجراح، فإن نساء المسلمين كان لهن نصيب غير منكور، ووردت الروايات أن صفية بنت عبد المطلب عمة النبى وأم الزبير، قد استطاعت ومن معها بالدار أن تقضى على يهودى تسلل إليهن، ولكن إلى جانب البطولات العديدة التى لا يتسع المجال لسردها هنا، ظهرت لدى البعض بوادر وهن وقلق، فطلب بعض بنى حارثة العودة بذريعة رد المتسللين من الأحزاب عن ديارهم لأنها مكشوفة، وغطفان إزاءها، وليس لهم من يردهم عن الذرارى والنساء، ولم يردهم عما أزمعوه إلا غضب سعد بن معاذ الذى عنفهم على ما يطلبونه!

تتوالى الأحداث، فما كادت تصل أنباء خيانة بنى قريظة لعهدهم، حتى كثفت الأحزاب هجومها، وأصيب سعد بن معاذ بسهم دعا الله إن وضعت الحرب مع قريش، أن يجعل هذا الجرح شهادة له وألا يميته حتى تقر عينه فى بنى قريظة الذين خالفوا وعدهم.. وقد كان، ولم يمت سعد الشهيد إلا بعد أن استوفى المسلمون حقهم من بنى قريظة بعد رحيل الأحزاب!

لم يتوقف المنافقون، عن بث الخذلان خلف صفوف المسلمين بالمدينة، يشجعهم ما أظهرته بنو قريظة من غدر وخيانة، وجعل بعضهم يخوف المسلمين بأن بيوتهم قد صارت عورة من خلفهم، ويتجرأون حتى يعايروهم بأن صاحبهم

لم يعدهم إلا غرورًا.. وتتجمع الغيوم حتى يزلزل البعض زلزالاً شديدًا، ويركب البعض الهم والحيرة.. هنالك يتنزل جبريل عليه السلام على محمد ﷺ، فيوحى إليه من آيات ربه: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا ۝١٠ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ۝١١ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ۝١٢ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ [الأحزاب: ١٠ - ١٣].

وبرغم كل هذه الغيوم والصعاب، لم تلن قناةٌ لصاحب العزم الأكبر وكوكبة المجاهدين الأبرار الذين صمدوا وجاهدوا معه.. فطفقوا يصدون فى ثبات إغارات الكفار التى تتابعت حتى لا تترك للمسلمين فرصةً للراحة، ولا للصلاة.. ويزداد القلق على الذرارى والنساء بالمدينة، فيدعو النبى إليه زيد بن حارثة، وسلمة ابن أسلم، ويجعل مع زيد ثلاثمائة رجل، ومع أسلم مائتين، ليحرسوا مَنْ خلفهم من النساء والصبيان والذرارى بالمدينة.

وإن المسلمين لفى هذه الشدة، وقد تكاثفت الأخطار من حولهم، ترسل غطفان فى طلب الصلح لقاء ثلث ثمار المدينة، ولكن النبى عليه السلام لا ينفرد بإجابة، ويدعو إليه السعدين: سعد بن معاذ وسعد بن عبادة، فيطلعهما على ما تطلبه غطفان، فيأبى الأنصاريان إلَّا أن يسألا الرحمة المهداة ﷺ: «يا رسول الله، أمر تحبه فنصنعه، أم شىء أمرك الله به لا بد لنا من العمل به، أم شىء تصنعه لنا»؟ فلما قال ﷺ لهما: «بل شىء أصنعه لكم». قالا: «إن كان أمرًا لم تؤمر به ولك فيه رأى فامض له سمعًا وطاعة». فقال عليه السلام لهما: «لو أردت ما شاورتكما.. إنى رأيت العرب قد رمتكم عن سهم واحدة، وكالبوكم من كل جانب»!.. ولكن السعدين يذكران للنبى ﷺ ما كانوا عليه من الشرك حتى أعزهم الله بالإسلام، ثم يختمان عبارتهما قائلين: «أفحين أكرمنا الله تعالى

بالإسلام، وهدانا له ـ وأعزنا بك وبه ـ نعطيهم أموالنا؟!! والله ما لنا بهذا من حاجة.. والله لا نعطيهم إلاّ السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم».. فارتاح النبى ﷺ واغتبط لما رد به صاحباه من الأنصار على عرض غطفان.

وإن النبى ﷺ لفى تحنثه ودعائه إلى ربه أن يهزم الأحـزاب، مستغرقًا فى صلاة خاشعة، يستأذن للقائه نعيم بن مسعود الغطفانى صاحب الدور المقيت الذى رأيته حين كلفه أبوسفيان بأن يذهب إلى المدينة ليفت فى عضد المسلمين ويخذلهم حتى لا يخرجوا إلى بدر الصفراء أو بدر الموعد، وكيف قبل المهمة يومها وأداها وجعل يلوح للمسلمين بأن قريشًا قد تجهزت لهم فى جمع كبير، وأنه من ثم لن يفلت منهم إذا التقوا إلاّ الشريد.. فما الذى أتى به اليوم ينشد لقاء الرحمة المهداة عليه الصلاة والسلام؟

لم يجد ﷺ بأسًا من لقائه، فإذا بعدوّ الأمس قد أفاء الله عليه بالإسلام وأسلم، أبدى ذلك للرسول ﷺ، وأبدى معه أن قومه غطفان لم يعلموا بعد بإسلامه، وطلب من النبى ﷺ أن يكلفه بما يشاء، فلم يزد عليه الصلاة والسلام على أن قال له: خذل عنا إن استطعت، فإن الحرب خدعة!

ولكن نعيمًا الغطفانى آلى على نفسه أن يجاوز ما طلب منه، فغذ خطاه إلى حصون بنى قريظة بالمدينة، وكانت صلته بهم وثيقة، ينادمهم ويسامرهم ويسامرونه فى الجاهلية، فجعل يزرع الشك فى نفوسهم ماذا هم فاعلون إذا انصرفت قريش وغطفان اللتان تحالفتا معهم وتركوهم إياهم وحدهم يواجهون محمدًا فى المدينة؟! فلما وجم القرظيون وداعبهم الخوف، سألوه النصح ماذا عساهم أن يفعلوا؟ فأشار عليهم نعيم بألاّ يقاتلوا مع قريش وغطفان حتى يأخذوا رهنًا من أشرافهم يستوثقون به ألا يبرحوا الحصار حتى يناجزوا محمدًا.. فراقت لهم الفكرة، واتفقوا مع نعيم أن يكتموا ماقام به.

لم يضيع نعيم وقتًا، فانتقل من حصون بنى قريظة، إلى مضارب قريش، حيث لقى أبا سفيان فى نفر من رءوس قريش، فذكرهم بوده وإياهم، وقفى بأنه

سمع ما رأى واجبًا عليه أن يبلغهم به. ولما اطمأن إلى تحرك أشواق القرشيين لمعرفة ما جاء به، أسر إليهم أن يهود بنى قريظة قد ندموا على انقلابهم على محمد، وأرسلوا إليه من يبدى ندمهم على التحالف ضده، وأنهم فى سبيل ذلك عرضوا عليه أن يأخذوا رهينة سبعين رجلاً من أشراف قريش وغطفان، ليسلموهم للمسلمين لضرب أعناقهم، ثم يكونوا عونًا لهم بعد ذلك على قريش وغطفان.

وكما فعل نعيم مع قريش، فعل مع غطفان، وسألهم كما سأل قريشًا أن يكتموا عنه، ومضت خطة الغطفانى كما رسمها، فقد طلبت اليهود وقد ركبتهم الهواجس، طلبت رجالاً كرهانٍ من كلٍّ من قريش وغطفان، فقر لديهما ما نقله نعيم أن بنى قريظة نوت الغدر بهما، وأنها ستطلب رهائن لإرسالهم إلى محمد لضرب أعناقهم ثم لينقلبوا ضد قريش وغطفان. فكان أن وقع الخلف بين هذا الثلاثى الرئيسى الذى يشكل قوام الأحزاب التى اجتمعت على المسلمين، وداخلتهم ظنون فى بعضهم البعض لا سبيل إلى دفعها، ولم تفلح السفارات المتبادلة فيما بينهم فى إزالة ما انزرع من سوء الظن!

تصاعدت الظنون، وضرب الشتات فى الأحزاب، وما هى إلاّ ليلة باردة شاتية، خيم فيها الظلام البهيم على مضارب قريش والأحزاب بشمال المدينة على الناحية المقابلة من الخندق، إلاّ انفتحت ينابيع السماء، وهطلت الأمطار غزيرة مدرارة، وانهمرت السيول، وعصفت الرياح.. وجعلت الريح تكفئ قدور الأحزاب، وتبعثر أوانيهم وتطيح بخيامهم، وتصيب بالذعر خيولهم وإبلهم.. حتى هتكت القباب، وكفئت القدور، وتقطعت الأوتاد، ودفن الرجال.. وتفشى الذعر بين الأحزاب، حتى وقف أبو سفيان مناديًا: «يا معشر قريش، يا معشر الأحزاب.. إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام، لقد هلك القراع والخف، وأخلفتنا بنو قريظة، وبلغنا عنهم الذى نكره، ولقينا من شدة الريح ما ترون.. ما تطمئن لنا قدر، ولا تقوم لنا نار، ولا يستمسك لنا بناء، فارتحلوا فإنى مرتحل».. ثم انطلق أبو سفيان وقد أمسك نارًا بيده، وحوله عصبته، وقد بدأت الأحزاب فى التفرق وهو ينادى فيهم: الرحيل الرحيل!!

وإن النبى عليه الصلاة والسلام، لهو فى مناجاته وتحنثه وابتهاله ودعائه وشكره لربه على ما أفاء به على المسلمين، يتنزل عليه الروح الأمين، فيوحى إليه الآيات من ١٤ إلى ٢٥ من سورة الأحزاب، التى جاء فى آخرها: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ (الأحزاب ٢٥).

* * *

انقشاع كابوس بنى قريظة بعد هزيمة الأحزاب (ذو القعدة / ذو الحجة ـ ٥ هـ)

المدينة وقد انزاح كابوس الأحزاب!. بيد أن كابوس الحصار وأثره وما صاحبه واقترن به جاثم مخيم على النفوس! لم يسبق أن تعرضت المدينة ولا تعرض الإسلام والمسلمون لخطر كهذا الخطر الذى أحاط بهم من كل جانب إحاطة السوار بالمعصم!!.. لولا عناية الله ومدده الذى أزاح الأحزاب، لنال المدينة والإسلام والمسلمين شر مستطير هائل يكاد يبلغ حد الفناء!!.. عناية الله سبحانه وتعالى هى التى خيبت سعى اليهود والأحزاب وردت الذين كفروا بغيظهم فلم ينالوا خيرًا، وكفت المؤمنين القتال ورد المتآمرين بغيظهم فلم ينالوا ما تمنوه!!.. إن خطاب أبى سفيان ينضح بغلٍّ لا ينفد، وبوعيد لا يخطئه بصير.. إنه يتوعد الإسلام والمسلمين بيوم كيوم أحد يضمر أن يبقروا فيه النساء، وإن السعى الذى خاب لهؤلاء هذه المرة مجدول كامن فى نفوس هؤلاء الطغاة، واللؤم الذى طويت عليه قلوبهم كفيل بأن يردهم واليهود إلى إعادة المحاولة التى أخفقت!!.. لن يهدأ لهؤلاء بال حتى يصيبوا من الإسلام والمسلمين ما أرادوه.. لم يعد فى الإمكان أن تطمئن المدينة للغادرين الذين خانوا العهد وتحالفوا مع المغيرين لضرب المسلمين من خلفهم!!.. كيف يمكن أن تأمن المدينة من بعد إلى بنى قريظة التى خانت وغدرت؟!.. وكيف يغضى المسلمون عن هذا الخطر الجاثم بالمدينة الداعى لأطماع الكافرين أن تلتئم معهم لمعاودة الكرة مرة ثم مرة لضرب المسلمين وتصفية دعوة الإسلام والقضاء عليها؟!!.. إن جُرْم الذين خانوا العهد وغدروا لأشد خطرًا وأثرًا ممن جاءوا مغيرين من خارج المدينة!.. وإن أمر اليهود لم يعد فقط أمر جزاءِ وَجَبَ وحَقَّ عليهم لقاء خيانتهم وغدرهم وتآمرهم مع العدو القادم من أشتات الجزيرة العربية، وإنما هو خطر قابع بأحشاء المدينة يتحين الفرصة

لضرب مجتمع الهداية والإيمان الذى أخذ يتنامى فى ربوعها!.. وإن السكوت عن عقاب الخيانة لم يعد سكوتًا فقط عن جزاء واجب، وإنما بات تفريطًا يجرئ الكفر والكافرين والمنافقين على معاودة الكرة والمضى فيما يبغون ويعرض الإسلام والمسلمين لأخطر العواقب!!.. إن هذه الخواطر لتتغشى المسلمين وهم يحملون متاعهم وعتادهم ويتخذون طريقهم للعودة إلى بيوتهم وأسرهم التى خلفوها أيامًا طوالاً من ورائهم ليصدوا عن المدينة إغارة الكفر والكافرين، فدبر اليهود لضرب ظهورهم ومداهمة النساء والذرارى ـ وفعلوا!!!.. وإن النبى ـ عليه السلام ـ لفى هذه الخواطر ذاتها يسترجع ما تكبده المسلمون من شهداء ومن خسائر وما حاق بهم من مخاطر ـ يلم به هاتف الوحى أن لا بد من تصفية أمر بنى قريظة، فلم يعد فى قوس الصبر منزع، ولا عاد بالإمكان تركهم وما فعلوا ويفعلون!!.. هنالك دعا النبى ـ عليه السلام ـ من يؤذن فى الناس بما أُوحِىَ به إليه..

أذن المؤذن فى المسلمين، ألا يصلوا العصر إلا فى بنى قريظة.. فخرج المسلمون تلبية لنداء الرسول ﷺ، ويروى الواقدى فى المغازى، أن سيرهم إلى حصون بنى قريظة كان يوم الأربعاء لسبع بقين من ذى القعدة للسنة الخامسة للهجرة، وحمل اللواء على بن أبى طالب، وخرج فيمن خرج من بنى عبد مناف: عثمان ابن عفان، وعكاشة بن محصن، والزبير بن العوام. ومن بنى زهرة: عبد الرحمن ابن عوف، وسعد بن أبى وقاص. ومن بنى تيم: أبوبكر الصديق وطلحة بن عبيد الله. ومن بنى عدى: عمر بن الخطاب. ومن بنى فهر: أبو عبيدة بن الجراح. ومن بنى عامر بن لؤى: عبد الله بن مخرقة، كما خرج زعماء الأوس والخزرج.. سعد بن معاذ، وأسيد بن حُضَير، ومحمد بن مسلمة، والحباب بن المنذر، ومعاذ ابن جبل، وسعد بن عبادة، وآخرون. ويقول الرواة إن عليا سبق إلى الحصون فى رُهط من المهاجرين والأنصار، وغرز الراية، بينما انطلق اليهود يشتمون رسول الله ﷺ وأزواجه، وتراموا مع سعد بن أبى وقاص والمسلمين ساعة، ويقول الرواة إن الحصار استطال خمسا وعشرين ليلة، لم يقع فيها إلا التراشق بالنّبل

والحجارة، وانتهى فى رواية طويلة بنزول يهود بنى قريظة على حكم سعد ابن عبادة الأوسى، لما كان بينهم وبين الأوس من تحالف، ونسوا فى هذا الاختيار ما فعلوه معه حين أوفده الرسول ﷺ إليهم ومعه أُسيد بن حُضير وعبد الله بن رواحة لإثنائهم عن تحالفهم مع قريش والأحزاب ضد الرسول والمسلمين، ونسوا ما أبدوه يومها من خسة ولجاجة، ونسوا مشاتمهم له وسبهم الرسول ﷺ.. والأثر الذى لا بد تركته لديه أفعالهم وما أظهروه من غدر وخيانة وخسة!!

وإذا كان بنو قريظة قد تنكبوا الصواب فى اختيارهم لسعد بن عبادة للنزول على حكمه، فإن المسئول الأساسى عما تداعى فى هذا اليوم هو الدور الكريه الذى باشره حُيى بن أخطب زعيم بنى النضير، الذى لم يكفه أنه خرج سالمًا مع قومه فى أعقاب ما كان منهم فى أحُد، فارتد إلى تحريض قريش والأحزاب وبنى قريظة على المسلمين للقيام بغزوة الأحزاب واستئصال شأفة الإسلام والمسلمين. فهذا الرجل حنث أكثر من مرة بعهده وعهد قومه مع الرسول ﷺ ـ والمسلمين، ولم يكتف بحنثه فظل وراء بنى قريظة حتى أثناهم عن عهدهم، وحَزَّبهم مع قريش وغطفان والأحزاب ضد المسلمين، ولو قيض لهذا التحالف الانتصار لاستأصلوا المسلمين وضربوا الإسلام فى مقتل لا يعلم إلّا الله أثره ومداه.

ومع أن كل المؤشرات كانت تعاضد الحكم الذى ارتآه سعد بن عبادة، فإن الموقف على شدته لم يخل من مشاهد استثنت النساء والذرارى، وتركت على سبيل المثال عطية القرظى ضمن جملة من لم تخضر ذقونهم، وعاش وأسلم، وهو مذكور ضمن الصحابة، كما لاذ رفاعة بن سموأل القرظى بأم منذر سلمى بنت قيس: إحدى خالات الرسول ﷺ، فوهبه لها، وأسلم وله صحبة ورواية، كذلك وهب الرسول ﷺ لثابت بن قيس بن الشماس ـ الزبير بن باطا وولده وكانت له يد عليه فى الجاهلية فاستحياهم، ومن هؤلاء عبد الرحمن بن الزبير أسلم وله صحبة. ويروى أنه نزل من الحصون ثعلبة بن سعية وأسَيد بن سعية وأسد بن عبيد، فأسلموا، وأمنوا على أنفسهم وأهلهم وأموالهم ولم يمسسهم أحد بسوء،

ونزل كذلك عمرو بن سُعْدَى، وكان قد رفض أن يساير بنى قريظة فى غدرهم برسول الله ﷺ، وقال: لا أغدر بمحمد أبدًا. وقال النبى ﷺ لأصحابه حين رآه: رجل نجّاه الله بوفائه! ويقال إنه حينما ترك حصونهم بات فى مسجد الرسول ﷺ بالمدينة، ثم ذهب إلى حيث لم يعرف أحد.

وبهذا اليوم، فى ذى الحجة من السنة الخامسة للهجرة، لم يعد هناك وجود لليهود بالمدينة، بعد أن كان قد أجلى سلفًا بنو قينقاع ثم بنو النضير ـ وعلى ذلك فليس يستقيم ما ذكرته بعض المصادر من أن المؤتمر الدينى الثلاثى الذى انتدب فيه أبو عبيدة بن الجراح للذهاب مع وفد نجران ـ كان فى العام العاشر أو التاسع للهجرة، فلم يكن لليهود وجود بالمدينة فى هذا الوقت ـ ناهيك عن أن يشاركوا هذه المشاركة الكثيفة التى نقلتها المصادر عن الحوار الذى دار مع المسلمين ومع وفد نجران يوم أوفد الرسول ـ عليه السلام ـ معهم أمين الأمة أبا عبيدة بن الجراح!

أبو عبيدة
الأمير إلى ذى القَصَّة

فى ربيع الأول من السنة السادسة للهجرة، أتت الأخبار للمدينة بتحرك بعض القبائل طمعًا فى المسلمين بعد ما شاهدوا من حصار الأحزاب لهم، فاجتهد المسلمون فى بث البعوث والسرايا للموادعة وتأمين أنفسهم فى المدينة، فخرجت سرية من أربعين رجلًا بقيادة عُكَّاشة بن محصن إلى الغَمْر.. ماء لبنى أسد على ليلتين من أعمال المدينة على طريق نجد.. وعادت السرية سالمة بلا قتال بعد أن تسامع بها الناس.. ثم خرج محمد بن مسلمة فى عشرة من الصحابة إلى بنى مَعْوية وبنى غُوَال «بذى القَصَّة» على طريق الرَّبَذَة من المدينة.. وإذ هم فى مضجعهم بليل، أحدق بهم نحو مائة من بنى ثعلبة وأحاطوا بهم من كل جانب، وأعملوا فيهم القتل، وسقط محمد بن مسلمة بجروح غائرة ظنوا بها موته فتركوه، فأنقذه عابر سبيل من المسلمين وحمله إلى المدينة!

انتدب الرسول ﷺ أبا عبيدة بن الجراح أميرًا على جماعة من المسلمين، وأرسلهم فى أثر الجناة، بيد أنهم كانوا قد فروا بفعلتهم.. ثم أتت الأخبار فى ربيع الآخر ٦ هـ ـ بأن بلاد أنمار وبنى ثعلبة الذين عدوا على من كانوا مع محمد بن مسلمة، قد أجدبت.. وأن بنى ثعلبة وأنمار وبنى محارب قد تجمعوا لشن إغارات على سَرْح (مرعى) المدينة.. فانتدب الرسول ﷺ أبا عبيدة ابن الجراح أميرًا على أربعين رجلاً، إلى موضع تجمعهم فى «ذى القَصَّة».. فسار أبو عبيدة بمن معه ليلًا، وأشرف على القوم فى عماية الصبح، فأخذتهم المباغتة فهربوا إلى رءوس الجبال، وعاد أبوعبيدة بمن معه ظافرين إلى المدينة، وفى صحبتهم أسير ما لبث أن انفتح صدره للإسلام، فأسلم بين يدى الرحمة المهداة عليه الصلاة والسلام.

غزوة بنى المصطلق
فى المُرَيْسيع

اتفق المؤرخون على أن هذه الغزوة كانت فى شعبان على مشارف رمضان، واختلفوا فى السنة، فمنهم من ذكر ـ كالذهبى فى تاريخه وابن سعد فى طبقاته ـ أنها كانت فى السنة الخامسة للهجرة، بينما اجتمع معظم المؤرخين كابن هشام فى السيرة وابن الأثير فى الكامل وابن سيد الناس فى السيرة المعروفة بعيون الأثر ـ على أنها كانت فى السنة السادسة للهجرة، وبذلك أخذ الدكتور محمد حسين هيكل فى «حياة محمد ﷺ»، والدكتور شوقى ضيف فى «محمد ـ خاتم المرسلين»، وهو ما أخذْتُ به فى «السيرة النبوية فى رحاب التنزيل»[1].

واتفقت المصادر على أن هذه الغزوة التى اشترك فيها ـ مع الرسول عليه السلام ـ المهاجرون والأنصار، ومنهم صاحبنا أبوعبيدة بن الجراح ـ كانت بسبب ما أتت به الأخبار أن الحارث بن أبى ضرار سيد بنى المصطلق من خزاعة،

(١) السيرة النبوية فى رحاب التنزيل ـ رجائى عطية ـ المجلد الرابع ٨٢/٤.

قد جمع قومه مع من استطاع جمعهم من العرب ـ عند «المُرَيْسيع».. وهو ماء لبنى خزاعة بينه وبين «الفُرْع» من أعمال المدينة ـ مسيرة يوم، وأنه يتهيأ بالحشود التى جمعها وبحلفائه من بنى مدلج إلى حرب الرسول عليه السلام بالمدينة. وتأكدت الأخبار بما عادت به العيون التى أرسلت لاستطلاع الأمر.

وفى شعبان، تجمع المسلمون بظاهر المدينة، يتقدمهم النبى ﷺ، ومعه كبار الصحابة من المهاجرين والأنصار وفيهم صاحبنا أبوعبيدة، إلى حيث تجمعات بنى المصطلق وحلفائهم، وقد خالط من خرجوا من المجاهدين، فريقٌ كبير من المنافقين، نفاقًا أو لمغانم يطمعون فيها، بينما طويت صدورهم على نقيض ما يظهرون، وقد تجلى هذا النفاق فى أعقاب النصر المؤزر الذى حققه المسلمون على الحشود المجتمعة ضدهم عند ماء المُرَيْسيع، وكانت بداياته ما شجر على شرب الماء حيث تدافع الناس وبادر أحد المنافقين لتحريض الأنصار والمهاجرين، حتى كاد الشر يقع بينهما لولا حكمة ومبادرة الرسول ﷺ، بينما لم يطق زعيم المنافقين عبد الله بن أبى بن سلول ـ لم يطق صبرًا على هذا النصر، وأوجس خيفة من أثره فى زيادة نفوذ الرسول ﷺ بالمدينة، فجعل ابن أبى بن سلول يسر لمن حوله من المنافقين الذين أظهروا الإسلام وأضمروا سواه: «قد نافرونا وكاثرونا فى بلادنا، والله ما عدونا وجلابيب قريش ما قال القائل: «سمن كلبك يأكلك»! ثم طفق يذيع فى الناس: «والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل! هذا ما فعلتم بأنفسكم: أحللتموهم بلادكم، وقاسمتموهم أموالكم حتى استغنوا»!.. وكثر الشر بتحريض ابن أبى بن سلول ومن جرى مجراه من المنافقين، حتى أشار البعض باستئصال شأفته، فذهب ابنه عبد الله طالبًا إلى النبى ﷺ أن يوكل إليه هو قتل أبيه إن كان لا بد من قتله، لأن نفسه لن تدعه ينظر إلى قاتل أبيه يمشى فى الناس فيقتص منه فيكون بذلك قد قتل مؤمنًا بكافر، ولكن النبى ﷺ يفرخ روعه، وكان صادق الإسلام على نقيض أبيه، ويقول له: «إنَّا لا نقتله بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقى معنا».

وبينما أثمر زواج الرسول ﷺ من جويرية بنت الحارث بن أبى ضرار زعيم بنى المصطلق، فى حقن الخلافات.. حتى أطلق المسلمون أسراهم من بنى المصطلق احترامًا لهذه المصاهرة، فإن المنافقين لم يتوقفوا عن دسهم وإطلاق الشائعات الباطلة فيما عرف بحديث الإفك، وليس موضوعنا هنا، ولكن ذكرناه وغيره تدليلاً على سوء أثر النفاق والمنافقين، وفى شأنهم نزلت الآيات ١ـ ٨ من سورة «المنافقون»، ثم الآيات ١١ ـ ٢٠ من سورة النور.

المجاهد الحكيم الحليم فى عهد الحديبية
(ذو القعدة ٦ هـ)

مضت الأعوام عامًا وراء آخر، فى مجاهدة وجهاد، والمهاجرون مغرّبون عن ديارهم فى مكة، محرومون من الحج أو الاعتمار إلى البيت الحرام.. ومع تزايد الأشواق، إلى زيارة مكة والبيت العتيق، طلع رسول الله ﷺ، إلى صحابته بأحد أيام ذى القعدة من السنة السادسة للهجرة، فدعاهم والمسلمين ومن يريد من العرب وأهل البوادى، للخروج معه إلى بيت الله الحرام الذى جعله سبحانه وتعالى مثابةً للناس وأمنًا.. وينهى إليهم ﷺ ـ أنهم درءًا لأية ظنون أو مخاوف قد تلابس قريشًا، فلن يخرجوا بأى سلاح إلاّ السيوف فى القرب.. ومضت الأيام فى التأهب للرحلة الميمونة المأمول أن تحترم قريش أنها فى الأشهر الحرم المرفوع فيها أى قتال.. ثم خرج المسلمون بملابس الإحرام من المدينة ومعهم من الهدى سبعون بدنة.. يتقدمهم الرحمة المهداة عليه السلام ـ على ناقته القصواء.. ومن حوله الصحابة من المهاجرين والأنصار.. شاخصين بقلوبهم وأفئدتهم إلى البيت العتيق.

وعند «ذى الحليفة» على الطريق إلى مكة، صلى الرسول ﷺ ـ الظهر بالمسلمين، ودعوا بالبدن فحللت، ثم أشعر منها، وأحرم الرسول عليه السلام والمسلمون بالعمرة لتطمئن قريش إلى أنهم جاءوا زائرين للبيت معظمين له.. واستأنفوا المسير

ملبين تتصاعد تلبياتهم إلى عنان السماء.. فيسلكون طريق البيداء، ويمرون بالأبواء حيث يتوقفون لبعض الراحة، ويتنزل الروح الأمين فيوحى إلى رسول الله ﷺ الآية ١٩٦ من سورة البقرة، وفى «الجحفة» نزلت القافلة للراحة والصلاة وقضاء شئون الناس.. ليستأنفوا طريقهم إلى مكة المكرمة محرمين معظمين للبيت الحرام.

بيد أن قريشًا يشتعل غضبها حين يأتيها الخبر، فيجتمع كبارها بظاهر الكعبة، ويقترح صفوان بن أمية أن يقدموا مائتى فارس إلى كراع الغميم بقيادة رجل جلد، فاقترح البعض خالد بن الوليد أو عكرمة بن عمرو بن هشام (ابن أبى جهل)، ولم يكونا قد أسلما بعد، فيستقر الأمر على انتداب خالد بن الوليد لهذه المهمة، وتشرع قريش لفورها فى استنفار الأحابيش وجلب من تستطيع من ثقيف.. وسارعوا فى الخروج فى اليوم التالى إلى حيث ضربوا مضاربهم عند «بَلْدَح».. وهو موضع خارج مكة.. وجعلوا يبثون العيون على رءوس الجبال وقد انتووا القتال لمنع الرسول ﷺ والمسلمين من دخول مكة.

وعند غدير الأشطاط.. وهو موضع تلقاء الحديبية وراء عسفان، على ثلاث مراحل من مكة، حيث أناخ المسلمون رواحلهم، قدم بشر بن سفيان من بنى كعب موفدًا من قريش للقاء النبى ﷺ، فجعل يقول للرسول إن قريشًا خرجت ومعها العوذ المطافيل (النوق ذوات الألبان).. ولبست جلود النمور، ونزلت بذى طُوى، وتعاهدت ألاَّ يدخل محمد عليهم مكة أبدًا، وأن خالد بن الوليد ومعه عكرمة بن أبى جهل قد عسكرا بالخيل عند كراع الغميم.

أخذه النبى ﷺ بالرفق والحجة، وأبدى وأصحابه الذين شاورهم، أنهم جاءوا معتمرين ولم يجيئوا لقتال أحد.. واستأنف المسلمون مسيرتهم المباركة حتى بدت لهم كراع الغميم على خيط الأفق، وخالد بن الوليد واقف بخيله ـ بين المسلمين وبين القبلة، ولكن النبى ﷺ يأمر بلالاً بأن يؤذن للصلاة وقد حل ميقاتها، وصلى عليه السلام بهم بينما فى، وقف عباد بن بشر فى بعض الفرسان لحمايتهم فى أثناء الصلاة، وبعدها يتنزل الروح الأمين فيوحى إلى الرسول ﷺ الآية ١٠٢ من سورة النساء.

يتوالى المبعوثون من قريش إلى رسول الله ﷺ بغرض إثنائه عن دخول مكة.. جاء بُدَيْل بن ورقاء الخزامى فى رجال من قومه، ولكنه عاد إلى قريش بما لا يرضيها.. فجعل يبدى لهم أن محمدًا لم يأت لقتال، وإنما جاء زائرًا للبيت.. فتغضب قريش لحديثه، ويصيح البعض ثائرًا معترضًا أن يدخل محمد عليهم مكة عنوة.. فتتحدث بذلك العرب.. وبعد أخذ ورد، تتوافق قريش على انتداب عروة ابن مسعود الثقفى للحديث إلى الرسول ﷺ فيحاول فى البداية ما حاوله سابقاه، ويحذر النبى عليه السلام من أن يجتاح قومه وأهله، ومما يمكن أن يتعرض له إذا أخذته قريش أسيرًا وقد جمعت له الجموع، ويغضب الصحابة لتطاول الرجل فى حديثه إلى الرسول ﷺ، فيعود عروة إلى قريش بغير الوجه الذى ذهب به، ويقول لزعمائها: «يا قوم إنى وفدت إلى الملوك: كسرى وقيصر والنجاشى، فما رأيت والله ملكًا قط أطوع فيما بين ظهرانيه من محمد فى أصحابه»!.. ثم يشير على القرشيين بأن يقبلوا ما عرضه محمد، من دخول البيت زائرًا معتمرًا، فيغضب القرشيون حتى هددوا الرجل بأنه لو تكلم بهذا غيره، لكان لهم معه شأن آخر!

ولم ينجح مبعوث قريش التالى: الحليس بن علقمة، فيما أخفق فيه سابقوه، فعاد من لقاء محمد عليه الصلاة والسلام ليقول لقريش.. والله ما أراد إلاّ زيارة البيت.. ولم يأت لقتال.. فعارضه القرشيون وسفهوه، ثم يبعث النبى ـ عليه السلام ـ بعثمان بن عفان، وله عزوة فى مكة، لمقابلة قريش وإخبارهم بأنهم لم يأتوا لقتال، وإنما جاءوا عمّارًا.. وغاب عثمان فى مكة حتى ظن المسلمون بأن قريشًا قد قتلته.. وتصاعد غضب المسلمين، حتى قال الرسول ﷺ: «لا نبرح حتى نناجز القوم»، ودعا الناس إلى البيعة، فبايعه جميع المسلمين فى هذا اليوم تحت الشجرة، ولم يتخلف يومها سوى الجد بن قيس أخى بنى سلمة، بينما كان أبو عبيدة بن الجراح فى مقدمة الذين بايعوا يومئذ على الموت، فيما عرف ببيعة الرضوان، وفيها نزلت الآيتان ١٨، ١٩ من سورة الفتح، وما يكاد يمضى يوم، حتى يعود عثمان بن عفان سالمًا من مكة حيث استقبله المسلمون فرحين

مكبرين. ولم يمض على قدومه يوم، حتى أتى سهيل بن عمرو موفدًا من قريش، ليبدى أنهم يريدون مصالحة الرسول ﷺ على أن يرجع عامه هذا، حتى لا يقال إنه دخل على قريش عنوة، على أن يأتى للاعتمار فى العام القابل.

وفى الحديبية دارت محادثات الصلح، شاقة ومضنية، والرسول ـ عليه السلام ـ يبذل من صبره وحلمه، وطالت المفاوضات حتى ضاقت الصدور، ثم بدت تباشير صلح توضع فيه الحرب عشر سنين، وأن يأمن الناس بعضهم بعضًا، وأن يرجع الرسول ﷺ بالمسلمين عامهم هذا، فإذا كان العام المقبل قدمها فخلت قريش بينه وبين مكة..

هنالك تثور ثائرة عمر بن الخطاب، فينتحى بأبى بكر جانبًا ليقول له غاضبًا: يا أبا بكر، أليس رسول الله حقًا؟! قال: بلى! قال عمر: أو لسنا بالمسلمين؟ قال أبو بكر: بلى! فقال عمر: أو لسنا على حق وهم على باطل؟ قال أبو بكر: بلى! فقال عمر دون أن يفارقه غضبه: فعلام نعطى الدنيّة فى دنينا؟! ولماذا نرجع ولم يحكم الله بيننا وبينهم؟!

حاول أبو بكر أن يهدئ ثائرة عمر، فقال له: «إنه رسول الله، وليس يعصى ربه، هو ناصره، فاستمسك بغرزه حتى تموت، فوالله إنه لعلى حق، وإنى أشهد أنه رسول الله، وأن الحق ما أمر به»! رد عمر: «وأنا أشهد أنه رسول الله». ولكن عمر ترك أبا بكر ويمم شطر النبى ﷺ ليعاود ما قاله لأبى بكر.. فيقول للرسول: يا رسول الله، ألست برسول الله؟! قال الرسول: بلى. قال عمر: أو لسنا بالمسلمين؟ قال النبى فى حلم: بلى.. فقال عمر: أو ليسوا بالمشركين. قال النبى دون أن يفارقه صبره وحلمه: بلى. فقال عمر: فعلام نعطى الدنية فى ديننا؟! ! فيجيبه النبى ﷺ فى صبر وحلم: أنا عبد الله ورسوله لن أخالف أمره ولن يضيعنى.

ولكن عمر يأبى فى غضبته إلّا أن يكرر ما قاله، فيردد: «يا رسول الله، علام نعطى الدنية فى ديننا ونحن على الحق»؟!

هنالك يتقدم المجاهد الحكيم الحليم، أمين الأمة: أبو عبيدة بن الجراح، فيعاتب عمر عتابًا شديدًا ويقول له ناهرًا: «ألا تسمع يا بن الخطاب رسول الله يقول ما يقول، تعوذ بالله من الشيطان الرجيم واتهم رأيك ولا تخالف رسول الله»!

ويروى الواقدى وغيره من الرواة، أن كلمات أبى عبيدة أفاقت عمر بن الخطاب من غيبة الغضب الذى ألم به، فطفق عمر يتعوذ بالله من الشيطان الرجيم وقد بلغ به الحياء كل مبلغ على ما تحدث به إلى رسول الله. وجعل يكرر تعوذه بالله من الشيطان حتى هدأ وجاءته كلمات الرسول ﷺ عاتبةً فى رفق نبوى: «يا عمر، ترانى رضيت وتأبى»؟!!

وأنت تستطيع أن تقدر حكمة ومكانة أبى عبيدة بن الجراح، حق قدرها ـ إذا استرجعت هذا المشهد، ورأيت كيف نجح أبو عبيدة فيما لم يوفق فيه أبو بكر الصديق على مكانته وأخوته وصداقته لعمر.. وكيف يكون أثر هذا الذى وصف بالرفق والدماثة واللين وطول الصمت، حين يتحدث، فيكون لكلماته وقع السحر الذى بدا كأنه أيقظ عمر بن الخطاب من ملمة ألمت به كاد يلقى بها أمرًا عظيمًا!!

وإذ استوت الأمور، وهدأ من كانوا على رأى عمر، بدأ النبى ﷺ يملى شروط الصلح على علىّ بن أبى طالب:

«اكتب، هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله ـ سهيل بن عمرو، اصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين يأمن فيهن الناس، ويكف بعضهم عن بعض، على أنه من أتى محمدًا من قريش بغير إذن وليه رده عليهم، ومن جاء قريشًا ممن مع محمد لم يردوه عليه، وأن بيننا عيبة مكفوفة وأنه لا إسلال ولا إغلال (لا سرقة ولا خيانة)، وأنه من أحب أن يدخل فى عقد محمد وعهده دخل فيه، ومن أحب أن يدخل فى عقد قريش وعهدهم دخل فيه». ثم أملى الرسول ﷺ ما طلب سهيل بن عمرو إضافته، أن يرجع ـ عليه الصلاة والسلام

ـ عامه هذا فلا يدخل مكة، وأنه إذا كان عام قابل تخرج قريش فيدخلها محمد بأصحابه فيقيمون بها ثلاثًا معهم سلاح الراكب السيوف فى القرب، ولا يدخلون بغيرها.

وشهد، على هذا العهد، أبو بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وعلى بن أبى طالب ـ وهو كاتب الصحيفة، وطلحة بن عبيد الله، والزبير بن العوام، وأبو عبيدة ابن الجراح، وسعد بن أبى وقاص، وعبد الرحمن بن عوف. ومن الأنصار: الحباب بن المنذر، وأسيد بن حضير، وسهل بن حنيف.

وقد دلت الأحداث، أن ما وافق عليه رسول الله ﷺ، كان عين الصواب، فقد ضاقت قريش ذرعًا بمن احتجزتهم أو رُدُّوا إليها ممن أسلموا، فلم يعد لها فيهم حاجة، ولا حكمة فى بقائهم بمكة يحدثون الناس بالإسلام الذى اهتدوا إليه فيتأثرون بهم، وكانت قصة أبى بصير الذى رده الرسول ﷺ ولاذ بساحل البحر، أصدق مثال على ذلك، فقد بدأ المسلمون الفارون من مكة، أو المردودون إليها، يلوذون به على ساحل البحر، وجعلت أعدادهم تتزايد، وصاروا بقوتهم المتزايدة شوكة فى جنب قريش حتى أرسلت إلى رسول الله ﷺ تناشده الرجوع فى هذا الشرط الذى بات وبالاً على قريش!!!

الجندى المجاهد فى غزوة خيبر
(المحرم ٧ هـ)

ما لبث المسلمون أن عادوا فى ذى الحجة من العام السادس للهجرة، حتى تأكدت الأخبار أن يهود خيبر ومن لحق بهم من بنى النضير وقينقاع وقريظة، قد نشطوا مع جيرانهم وأحلافهم من قبائل بنى غطفان، على حرب الرسول ﷺ، واعدين من يؤلبونهم على أن لهم ما يشاءون من ثمار خيبر، وهى واحة كبيرة بشمال المدينة على طريق القوافل المصعدة إلى الشام والآتية منها، وتتخللها سبع قلاع صخرية اشتهرت بالمناعة.. وجد اليهود فيها منعة حينما هاجروا إليها

من قديم ـ وإلى المدينة ـ فرارًا من بطش الرومان!.. واشتعلت خيبر بتحريض بنى النضير الذين ذهبوا إليها بثاراتهم منذ أجبروا على الجلاء عن المدينة.. حتى جعل المقاتلون من اليهود يخرجون كل يوم بالآلاف ليتصايحوا تيهًا بمنعتهم فى خيبر، ويتصايحون ساخرين: «محمد يغزونا هيهات هيهات»!

استقر الرأى بعد مشاورة النبى ﷺ لكبار الصحابة، على الخروج إلى خيبر للحيلولة بين ما يعده يهود خيبر وأحلافهم من قبائل غطفان، ونادى الرسول ﷺ: «لا يخرجن معنا إلاّ راغب فى الجهاد».. ورد عليه السلام من أرادوا من المنافقين الاشتراك طلبا للغنيمة، ولم يقبل إلاّ من خرجوا معه إلى الحديبية، وبايعوه بيعة الرضوان. وخرج المسلمون من المدينة إلى خيبر فى المحرم من السنة السابعة للهجرة فى أرجح الروايات، وحمل اللواء على ابن أبى طالب، ودفع عليه السلام رايةً إلى الحباب بن المنذر، ورايةً إلى سعد بن عبادة، وخرج معهم الجندى المجاهد أبوعبيدة بن الجراح، صاحب الحكمة المصفاة فى الحديبية، والحاضر فى جميع المشاهد إلى جوار رسول الله.

ولست أريد أن أطيل على القارئ فى تفاصيل هذه الغزوة، فلا يتسع المقام لذلك هنا، ويمكن لمن يريد التفاصيل وقصة الشاة المسمومة التى دُسّت لاغتيال رسول الله ﷺ أن يرجع إلى كتابى: السيرة النبوية فى رحاب التنزيل[1]، وإلى سبل الهدى والرشاد فى سيرة خير العباد[2].. وموجز أحداث هذه الغزوة التى حضرها وشارك فيها صاحبنا أبوعبيدة بن الجراح، أن المسلمين كتموا وجهتهم وساروا ليلاً حتى فاجأوا أهل خيبر بمقدمهم.. حيث بدأوا بمنطقة «النطاة».. وبها أربعة حصون، سرعان ما سقط أولها، حيث حرص الرسول ﷺ على أن ينهى عن تقطيع النخيل، وثنى بحصن «ناعم» بعد حصن «النطاة»، وكان حصنًا مليئًا بالسلاح والدروع والدبابات، دل المسلمين إلى منفذه أحد اليهود، وتواترت الروايات عن

(١) السيرة النبوية فى رحاب التنزيل. رجائى عطية ١٩١/٤ ـ ٢٥٨.

(٢) سبل الهدى والرشاد فى سيرة خير العباد ـ ١٨٠/٥ ـ ٢٦٧.

صدق بلاء المجاهدين، حتى سقط حصن «ناعم»، حيث نادى الرسول ﷺ ـ بعدم المساس بنساء اليهود، قبل أن ينتقل هو والمسلمون إلى تل «الشق» بشمال خيبر فى اتجاه الشام، حيث سقطت قلعتا «شموان»، وأمر النبى عليه السلام بتحريم زواج المتعة باليهوديات وبألاّ يتم الزواج باليهوديات إلاّ بعقد أسوة بالمسلمات، ثم انتقل المسلمون إلى منطقة الكتيبة بخيبر، وحاصروا حصن «القموص»، وهو حصن أبى الحقيق صاحب الباع الكبير فى الحرب على الرسول ﷺ والمسلمين، وهو من أكثر حصون خيبر قوة ومنعة، ومع أن النبى عليه السلام قبل الصلح الذى جاء فأبداه كنانة بن أبى الحقيق ورهط من اليهود، شارطًا عليهم ألا يكتموه شيئا أو يخونوه، فإنهم بفعل وتدبير زينب بنت الحارث اليهودية، انتقاما لزوجها سلام بن مشكم، دسوا شاةً مسمومة أهدوها بعد شيّهاإلى الرسول ﷺ وأصحابه لقتلهم، لولا أن اكتشف النبى ـ عليه السلام ـ من أول قضمة أنها مسمومة، وقال لمن معه: «كفوا أيديكم فإنها مسمومة». إلاّ أن بِشْر بن البراء كان قد طعم منها ما عجل بوفاته مسمومًا، حيث اعترفت المرأة اليهودية بما فعلت، وعزته إلى ما نال زوجها وقومها من المسلمين.

يبقى من نبأ هذه الغزوة، أنها انتهت بتصالح أهل فدك اتقاء لما حدث مع حصون خيبر التى سقطت تباعًا، وقبل أن يغادر المسلمون عائدين إلى المدينة، وَصَل من كانوا قد أتوا من الحبشة، وفيهم جعفر بن أبى طالب، وأم حبيبة بنت أبى سفيان، التى كان النبى ﷺ قد كتب عليها وهى بالحبشة بعد أن ارتد زوجها عن الإسلام وتركها بالحبشة، وفى طريق العودة بعد أن تصالح الرسول ﷺ مع ما بقى من حصون خيبر، تزوج عليه السلام بصفية بنت حُيى ابن أخطب بعد أن اختارت الله ورسوله، وأسلمت وحسن إسلامها. وعاد صاحبنا أبو عبيدة بن الجراح مع من عادوا إلى المدينة ظافرين راضين بصدق جهادهم فى سبيل الله.

المنكر لذاته فى ذات السلاسل
(جمادى الآخرة ٨ هـ)

كانت هذه السرية بعد أسابيع من الامتحان الذى تعرض له المسلمون فى سرية مؤتة فى جمادى الأولى سنة ٨ هـ.. وهى السرية التى زلزل فيها المسلمون زلزالاً شديدًا، واستشهد فيها الأمير حامل اللواء زيد بن حارثة، ثم استشهد جعفر بن أبى طالب الذى حمل اللواء من بعده، ثم عبد الله بن رواحة. وتوافق المسلمون بعد استشهاد الأمراء الثلاثة الذين عينهم الرسول ﷺ على الترتيب، على أن يتولى القيادة خالد بن الوليد، وكان قد أسلم منذ نحو عام هو وعمرو بن العاص، فقام خالد بعمل عبقرى فى فنون القيادة استطاع به أن ينسحب سالمًا بالمسلمين، وهذا العمل هو الذى نال به خالد اللقب الذى أضفاه عليه الرسول ﷺ، وذهب به إلى آخر الزمان.. أنه «سيف الله المسلول».. ولكن بعض المسلمين بالمدينة أبوا إلَّا أن يستقبلوا العائدين قائلين: «يا فُرّار، فررتم فى سبيل الله، يا فرار»!

كان لازمًا أن يسترد المسلمون هيبتهم بعد هذا الابتلاء، فى الوقت الذى تقاطرت فيه الأخبار بأن جموعًا من «بلىّ» «وقضاعة» قد أخذت تتجمع فى ذات السلاسل وراء وادى القرى تريد أطراف المدينة، فلما تأكدت الأنباء، تشاور النبى ﷺ وكبار الصحابة، واستقر عليه الصلاة والسلام على أن يرسل سرية إلى هذه التجمعات، اختار لقيادتها عمرو بن العاص، رشح عمرًا لهذا الاختيار للقيادة ـ أنه ذو رحم فى هذه القبائل، فأم العاص بن وائل بَلَوِيّة، وقبيلتها بمثابة أخواله، فأراد النبى عليه السلام أن يتألف بعمرو من يمر بهم من قبائل العرب من بَلِىّ، وعُذْرة، وبَلْقين. وخرج عمرو بن العاص فى نحو ثلاثمائة من سراة المهاجرين والأنصار فى جمادى الآخرة سنة ٨ هـ.. وفى موضع بأرض جذام، حيث ضرب المسلمون مضاربهم على ماء يقال له السلاسل والسَّلسل ـ أرسلوا

العيون للاستطلاع، فأفادت الأرصاد أن جموع القوم كثيرة، فبعث عمرو إلى النبى ﷺ أن يرسل إليه مددًا، فأرسل إليه عليه السلام مددًا فى نحو مائتين من سراة المهاجرين والأنصار، فيهم أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب، وأَمَّر عليهم أبا عبيدة بن الجراح.

ويروى الرواة، أن عمرو بن العاص اعترض على إمارة أبى عبيدة بن الجراح له، وتذرع بأنه جاء بمن معه مددًا، وأنه الأمير، وقال لأبى عبيدة: «إنما قدمت علىّ مددًا لى وليس لك أن تؤمّنى وأنا الأمير».

لم يغضب أبو عبيدة مع أنه الأسن والأكبر مكانة وسابقة فى الإسلام، وإنما غضب المهاجرون وفيهم من السابقين الأولين أبو بكر وعمر وغيرهما.. وأبوا على عمرو ما يريده، ثم قالوا له أخيرًا: «أنت أمير أصحابك، وهو أمير أصحابه».. ولكن عمرو بن العاص قال: «لا بل أنتم مدد لنا».

هنالك يتدخل أبو عبيدة بلينه ورفقه وإنكاره لذاته، وهو الذى قال فيه الصديق لمن سألوه النصيحة: «عليكم بالهين اللين، الذى إذا ظُلم لم يَظلم، وإذا أسىء إليه غفر، وإذا قُطع وصل، رحيم بالمؤمنين، شديد على الكافرين، عليكم بأبى عبيدة بن الجراح».

بلينه ورفقه وحكمته وإنكاره لذاته، قطع أبو عبيدة هذا الحوار، وقال لعمرو: «يا عمرو تعلمن أن آخر شىء عهد إلىّ الرسول ﷺ أنْ قال: «إذا قدمت على صاحبك فتطاوعا ولا تختلفا، وإنك والله إن عصيتنى لأطيعنك». وعن طيب خاطر ترك أبو عبيدة لعمرو الإمارة وإمامة الصلاة، ويقال إن المغيرة بن شعبة غضب لذلك، وقال له: إن رسول الله قد استعملك علينا، وليس لعمرو علينا أمر».. فقال له أبوعبيدة مهدئًا مترفقًا: «إن رسول الله أمرنا أن نتطاوع، فأنا أطيع رسول الله وإن عصاه عمرو».. والتزم أبو عبيدة أن يكون جنديًا عاديًا فيما نذر نفسه فيه إلى الله، وتابع مسيرته مع المجاهدين، فوطئوا بلاد بَلىّ، وكلما وصلوا إلى موضع تفرق الناس من أمامهم، حتى وصلوا إلى أقصى بلاد بَلىّ وعُذْرةَ وبَلْقين، فقاتلوا

ساعة وتراموا بالنبل مع الجمع الذى وجدوه، ثم حمل عليهم المسلمون فهربوا، وأقام المسلمون أيامًا ليتسامع بهم الناس قبل أن يعودوا موفورين إلى المدينة.

ونقل الرواة عن عوف بن مالك، أنه أخبر الرسول عليه السلام بما كان بين أبى عبيدة بن الجراح وعمرو بن العاص، ومطاوعة أبى عبيدة، فقال ﷺ: «يرحم الله أبا عبيدة بن الجراح».

سريّة أبى عبيدة بن الجراح إلى سيف البحر
(رجب ٨ هـ)

سميت هذه السريّة، باسم أبى عبيدة ، لأنه كان أميرها.. وسميت سيف البحر، لأنها كانت إلى جماعة من جهينة بالقَبَلية مما يلى ساحل البحر الأحمر على بعد خمس ليال من المدينة، وسميت أيضا بسريّة الخَبَط، نسبة إلى المتساقط من ورق الشجر الذى يُخْبط بالعصا لتعلفه الإبل، والذى اضطر المجاهدون إلى التبلغ به حين جاءوا بعد أن نفد زادهم الضئيل من التمر.. وأرجح الروايات أن هذه السريّة خرجت فى رجب من السنة الثامنة للهجرة، وبقيادة أبى عبيدة ابن الجراح، بعثه الرسول ﷺ أميرًا لها على ثلاثمائة من المهاجرين والأنصار، فيهم عمر بن الخطاب وجابر بن عبد الله.

ونقل البخارى ومسلم والرواة، عن جابر بن عبد الله: «بعثنا رسول الله ﷺ فى ثلاثمائة من المهاجرين والأنصار فيهم عمر بن الخطاب، وأمّرَ علينا رسول الله ﷺ أبا عبيدة بن الجراح، وزودنا بجراب من تمر لم يجد لنا غيره، فكنا ببعض الطريق، وفى رواية فأقمنا بالساحل/ نصف شهر ففنى الزاد، فأمر أبوعبيدة بأزواد الجيش فجمع فكان مزود من تمر، وكان يقوتنا كل يوم قليلاً قليلاً، وفى رواية: «فكان يعطينا قبضة قبضة، ثم صار يعطينا تمرة تمرة حتى فنى.. قيل لجابر: كيف كنتم تصنعون بها؟ قال كنا نمصها كما يَمصُّ الصبى، ثم نشرب عليها الماء فتكفينا يومنا إلى الليل».

وقد وقفت عند هذه السريّة، مع أنه لم يجر فيها قتال، لأنها كاشفة عن صور تجلى فيها أبو عبيدة: القائد، المدبر المفكر، المجتهد. فكان أول ما صادفه من صعوبات، هو الزاد الضئيل الذى خرجوا به من المدينة، فاجتهد بتدبيره ليكفيهم فى هذه السريّة التى طال أمدها، واتفقت الروايات على أن أباعبيدة أحسن بجمع ما مع المسلمين من زاد قليل، ليتولى توزيع القليل منه كل يوم على الجميع بالسوية.. حتى لا يعطى منه لكل فرد سوى قبضة قبضة، ثم خفض نصيب الفرد إلى تمرة، فلما اشتد بهم الجوع وكاد يهلكهم، اضطرّ وإياهم إلى جمع الأوراق المتساقطة من شجر الطلح ليتبلعوا بها، ونقل الرواة عن جابر بن عبد الله ما فعلوه بورق الشجر فقال: «ثم كنا نخبط الخَبَط بقسينا ونَسُفُّه ونشرب عليه الماء حتى سُمِّينا جيش الخَبَط».

وينقل الرواة مشهدًا آخر تجلى فيه اجتهاد أبى عبيدة الذى يجتهد رأيه ولا يألو.. فقد طال بالسرية الوقت حتى وهن الناس من الجوع، وقال بعضهم لو لقينا عدوا ما كان بنا حركة إليه لما بنا من الجهد. وتصادف أن مرت قافلة صغيرة من جهينة معها بعض الجُزُر والعير والشياه، فناداهم قيس بن سعد ابن عبادة، وسألهم أن يبيعوه جُزُرًا ينحرها على أن يوفيهم الثمن بالمدينة، فقال له الجهينى: والله ما أعرفك فمن أنت؟. قال: أنا قيس بن سعد بن عبادة ابن دُلَيْم. فقال الجهينى إنه يعرف أن أباه سيد أهل يثرب، وقبل أن يبيع له خمس جزُرٍ كل جزور بوسْق من تمر، واشترط عليه البدوى أن يكون التمر ذُخْرة (يابس) من تمر آل دُلَيْم. وأشهدا على ذلك نفرًا من الأنصار ومعهم نفر من المهاجرين. إلاّ أن عمر بن الخطاب أبى أن يشهد، وقال: «لا أشهد، هذا يُدان ولا مال له إنما المال لأبيه». ولكن الجهينى أبدى ثقته فى بوفاء والده سعد بن عبادة. وقال الجهينى: «والله ما كان سعد ليُخْنى بابنه(يخفر ذمته ويسلمه) فى سقةٍ من تمر، وأرى وجهًا حسنًا ـ يقصد قيسًا ـ وفعلاً شريفًا» فأخذ قيس الجُزُر فنحرها لإخوانه فى مواطن ثلاثة، كل يوم جزورًا. فلما كان اليوم الرابع، وأراد

قيس أن ينحر، نهاه أميره أبوعبيدة بن الجراح، متأثرًا فيما يبدو بما كان قد اعترض به عمر، فقال أبوعبيدة لقيس: «تريد أن تخفر ذمتك ولا مال لك». فأجابه قيس: «لا بأس على». فعاد أبوعبيدة يقول له مترفقًا: «عزمت عليك ألا تنحر، أتريد أن تخفر ذمتك ولا مال لك»؟ فأجابه قيس مطمئنًا إياه: «يا أباعبيدة أترى أبا ثابت (سعد بن عبادة) وهو يقضىَ ديون الناس، ويحمل الكَلّ، ويطعم فى المجاعة، لا يقضى عنى سقة تمر لقوم مجاهدين فى سبيل الله»؟!

وكاد أبوعبيدة يلين، ولكن عمر بن الخطاب انبرى ليقول لأبى عبيدة مكررًا: «اعزم عليه.. اعزم عليه». ليقول أبوعبيدة لقيس: «عزمت عليك يا قيس ألا تنحر». فرضخ الشاب لما طلبه الأمير. وروى الرواة أنه بعد الوصول للمدينة، أقر سعد بن عبادة واستحسن تصرف ابنه، ووفّى بما التزم به، ثم ذهب إلى رسول الله ﷺ ليقول مداعبًا ـ فى حضور عمر: «يا رسول الله، من يعذرنى من ابن الخطاب: يريد أن يُبخّل علىّ ابنى»!

ونعود إلى سريّة أبى عبيدة فى رحلتها الشاقة، فقد نقل الرواة أنهم حين أدركوا الساحل، ألقى إليهم البحر بدابة يقال لها العنبر.. وهى حوت كبير.. وصفه جابر بن عبد الله بأنه مثل الظراب أو كهيئة الكثيب الكبير. وبادر أبوعبيدة فقال لأصحابه: «ميتة.. لا تأكلوا». ثم قال ـ بعد روية وتفكير: «نحن رسل رسول الله، وقد خرجنا فى سبيل الله، ونحن مضطرون، فكلوا على بركة الله، فأكلنا منه عشرين ليلة، واصطنعنا منه وشيقة (لحم يُقَدّد حتى ييبس)»، وروى أن أبا عبيدة أمر بضلع من أضلاعه فنصبت، ومر تحتها بعير برحله فلم يصبه، وأباح أبوعبيدة للمجاهدين أن يطعموا منه.

وأنت ترى أنه لولا حكمة أبى عبيدة، لتعرضت هذه السرية للهلاك، ولكنى أحب أن أتوقف عند اجتهاده بالنسبة للميتة (الحوت) التى قذف بها البحر.. فقد كان رد فعله الأول: «ميتة.. لا تأكلوا منها»! وتحرج المسلمون بدورهم من أكل الميتة.. ولكن أبا عبيدة عاد ليفكر فى روية، فهداه اجتهاده إلى رأى

صائب أقره النبى عليه السلام فيما بعد ـ حين عرض عليه.. فقد رأى أبوعبيدة أنهم مجاهدون فى سبيل الله، وأنهم فى حالة ضرورة.. ودلت عبارته بوضوح على ذلك: «نحن رسل رسول الله، وقد خرجنا فى سبيل الله، ونحن مضطرون، فكلوا على بركة الله».. فأفتى بذلك بما يرفع الحرج عنه وعن المسلمين.

ويتوقف قارئ السيرة ليتأمل طويلاً فى موقف واجتهاد أبى عبيدة إزاء الضرورة التى صادفتهم فى الجهاد، فصدر فى اجتهاده عن صحيح القرآن الحكيم، وهو ما أقره عليه الرسول ﷺ، فالآية (١٤٥) من سورة الأنعام، وهى مكية نزلت بمكة قبل الهجرة إلى المدينة، وإن حرمت الميتة فيما حرمت، إلا أنها استثنت حالة الضرورة، فقالت: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٤٥].. وجاء بالآية (١١٥) من سورة النحل، وهى بدورها مكية: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ١١٥]. والآية الثالثة من سورة المائدة، وإن نزلت بعد ذلك بعرفات فى حجة الوداع، فإنها أكدت ما جاء بسورتى النحل والأنعام، ووثقت قاعدة عامة لحالة الضرورة كعذر عام يقيل المكلف من المسئولية. وحالة الضرورة فرع فى الإسلام على مبدأ أعم، هو أن المسئولية بعامة مناطها القدرة والاستطاعة، فلا يكلف الله تعالى نفسًا إلا وسعها (البقرة ٢٨٦، ٢٣٣، والأنعام ١٥٢، والأعراف ٤٢، والمؤمنون ٦٢).. فاستن القرآن الحكيم قاعدة عامة أنه لا تكليف بمستحيل، وأن مناط المسئولية هو ـ فضلاً عن التمييز ـ الحرية والاختيار، فإذا قام عارض يعطل الحرية أو الاختيار، انحسرت المسئولية اعتمادًا على إباحة مقررة، كما رأينا فى سورتى النحل والأنعام، وكذا بالآية الثالثة من سورة المائدة، وفى حديث رسول الله ﷺ: «الضرورات تبيح المحظورات».

وقد أورد مسند الإمام أحمد بن حنبل، بسنده مرفوعًا إلى جابر بن عبد الله، تفاصيل رواية لسرية الخَبَط، وما صادفهم فيها حتى قذف البحر إليهم بالدابة

الضخمة التى يقال لها العنبر، وما اجتهد فيه أبوعبيدة وسند اجتهاده إلى أن قال جابر: «فلما قدمنا المدينة أتينا رسول الله ﷺ فذكرنا له فقال: «هو رزق أخرجه الله عز وجل لكم». وهو حديث صحيح على شرط مسلم.

فتح مكة
(رمضان ٨ هـ)

لم يكد أبو عبيدة وأصحابه يعودون من سيف البحر، حتى تلقوا أمرًا فى أوائل رمضان ٨هـ بالتأهب للخروج مع رسول الله ﷺ إلى جهة لم يفصح عليه السلام عنها.. وربما جعل بعضهم يخمن، ويحلل معانى المظاهر التى ماجت بها المدينة.. فقد نقضت قريش عهد الحديبية، بعد أن كانت قد طلبت ـ تحت ضغط ما لاقته من أبى بصير وجماعته ـ تغيير ما كانت قد شارطت عليه من أن يرد المسلمون من يأتيهم مسلمًا من قريش، وفوجئت المدينة يومًا بمقدم أبى سفيان زعيم قريش موفدًا منها لزيادة مدة الصلح فى عقد الحديبية، وتسامع المسلمون بأن كبار الصحابة لم يقبلوا أن يتوسطوا له عند رسول الله ﷺ، حتى لم يجد أبو سفيان بدًّا من أن يركب راحلته عائدًا إلى مكة وقد خابت سفارته!

إن هناك مقدمات تورى بأن مكة فى الأفق، ولكن هل يخرج محمد عليه السلام إلى مكة؟ إن أحدًا لا يستطيع أن يجزم.. بينما لبى أهل البوادى دعوة الرسول ﷺ للحضور برمضان إلى المدينة، وقدمت أسلم وغفار ومُزينة وجُهينة وأشجع وبنو كعب ثم لحقت بنو سليم، وطوائف من قيس وأسد وتميم وغيرهم من سائر العرب.. والمدينة تموج باستعدادات المهاجرين والأنصار، فلما اكتملت وأوشك رسول الله ﷺ على المسير، كشف للمسلمين أن وجهتهم مكة، ونادى فى المسلمين أن من أحب أن يصوم فليصم، ومن لم يستطع فله أن يفطر.. وتحركوا ميممين إلى مكة.

خرج الرسول ﷺ بمن معه، وقد ناهزت عدتهم عشرة آلاف، من جنوب المدينة الذى شهد مقدمه مهاجرًا من مكة، ومضت قافلة الفتح فى طريقها مرورًا

بـ «العَرْجْ».. وهى قرية جامعة على ثلاثين ميلا من المدينة، ثم بقرب «الطلوب».. وهو ماء فى الطريق بين المدينة ومكة، ثم بـ «قُدَيد»، وهى قرية جامعة بين المدينة ومكة، حيث ضرب المسلمون مضاربهم، وعقد النبى ﷺ الألوية والرايات للقبائل، ثم وصلوا إلى «الكُدَيد» ـ قبل قليل من كراع الغميم حيث لاحظ الصحابة أن من آثروا الصوم ولم يستخدموا الرخصة، قد شق عليهم الصيام، ويرى البعض أنهم خُيروا فاختاروا، ولكن الرحمة المهداة ﷺ، يدعو إليه بإناء من الماء، ويضعه على راحته ليراه الناس، ثم تناوله عليه السلام فشرب فأفطر، ثم ناوله رجلاً إلى جواره فشرب وشرب الناس.

وفى مر الظهران، حيث ضرب المسلمون مضاربهم، أتى بعض العصاة الذين كادوا كثيرًا للإسلام ورسوله.. أتوا واحدًا وراء آخر، ينشدون العفو والأمان، فيتسع لهم فى النهاية بر وعفو الرحمة المهداة ﷺ.. ويأتى فيمن أتى ـ ولكن فى جوار العباس بن عبد المطلب: أبو سفيان بن حرب وحكيم بن حزام وبُدَيْل ابن ورقاء. وفى تفصيل لا يتسع له المقام هنا، اتسع حلم النبى عليه السلام لهم، وبقوا فى صحبة العباس بمضارب المسلمين مدهوشين بصوت الأذان وهروع الناس إلى الصلاة، مبهورين بتكبيرات الرسول ﷺ وتكبيرات المسلمين من ورائه، وركوعهم وسجودهم خلفه.. فيتسرب إليهم مع الغم إحساس بجلال الموقف.. فيؤخذ أبو سفيان حتى يقول للعباس: «يا أبا الفضل، أصبح والله ابن أخيك عظيم الملك»!. فيجيبه العباس: «إنه ليس بملك، ولكنها النبوة»!

أعلن أبو سفيان وحكيم وبديل إسلامهم، ومضوا فى صحبة العباس إلى مضيق الوادى المؤدى إلى مكة، عند خَطْم الجبل (أنف الجبل)، ويراقب أبو سفيان أرتال المسلمين مبهورًا، فيرى أرتال بنى سليم فى نحو ألف عليهم خالد بن الوليد، يعقبه رتل آخر عليه الزبير بن العوام، ويتوالى مرور القبائل وقد احتبست أنفاس أبى سفيان مما يراه..ثم تظهر الكتيبة الخضراء وفيها رسول الله ﷺ، وتضم المهاجرين والأنصار، ومع كل بطن من بطونهم لواء وراية.. وفى هؤلاء كان

صاحبنا أبو عبيدة بن الجراح فى المقدمة على البياذقة أى الرجَّالة (المترجلين) من المهاجرين.. فدخلوا مكة من أعلاها فى حذاء جبل هند.. وأورد الإمام مسلم فى صحيحه (١٧٨٠) فى باب فتح مكة، أن النبى ﷺ بعث الزبير بن العوام على إحدى المجنبتين، وخالد بن الوليد على الأخرى، وأنه ﷺ بعث أبا عبيدة ابن الجراح على الحسّر (الحاسرين من الجنود)، فكان على البياذقة (أى البيادقة وهم الجند الراجلون)، فأخذوا بطن الوادى ورسول الله ﷺ فى كتيبته. وأورد ابن عبد البر فى الدرر (ص ١١٨) ـ أن مكان أبى عبيدة بن الجراح كان على مقدمة موكب النبى، ونقل ابن كثير فى صفوة السيرة (٢٤٤/٣، ٢٤٥) وابن سيد الناس فى عيون الأثر (١٩١/٢) ـ عن ابن إسحق، أن أبا عبيدة بن الجراح كان يومها على البياذقة من المهاجرين، وأقبل بالصف من المسلمين ينصب لأهل مكة بين يدى رسول الله، وأن الرسول ﷺ دخل من أذاخر (ثنية بين مكة والمدينة) حتى نزل بأعلى مكة، فضربت له هنالك قبة، فيحنى عليه السلام هامته خشوعًا وتواضعًا وشكرًا لله حتى كادت لحيته تمس وسط الراحلة.

كانت هذه المشاهد أكبر من قدرة أبى سفيان على الاستيعاب أو الاحتمال، فيشرع فى الإسراع إلى مكة كيما تحتكم قريش إلى العقل وتلبى دعوة الرسول بتجنب القتال.. وبوساطة العباس يجعل له الرسول ﷺ ما يرضيه، لينشر بين قريش والمكيين أن من دخل بيت أبى سفيان ـ فهو آمن، إلى جوار أن من دخل المسجد فهو آمن، ومن دخل بيته وأغلق عليه بابه فهو آمن.

وأورد الرواة، أن الرسول ﷺ أرسل من ينادون فى المسلمين: إن رسول الله يأمركم أن تكفوا أيديكم، ولا تقاتلوا إلاّ من يبدؤكم بقتال.. وأنه حينما بلغه عليه السلام قالة متوعدة لصاحبه سعد بن عبادة، نادى عليه السلام: «بل اليوم يوم المرحمة»، وأمر براية قومه من الأنصار لتعطى لابنه قيس بن سعد بن عبادة، إرضاءً واتقاءً، لما عرف عن قيس من أنه كان أكثر من أبيه حلمًا وهدوءًا، وأنه سوف لا يؤذى مشاعره أن يعطى اللواء لابنه.

وقال الرواة: إنه ﷺ أرسل إلى خالد بن الوليد من يأمره بالكف عن القتال، ولم يقبل عذره إلّا عندما تبين أن هناك عند دخوله من «الليط» بأسفل مكة ـ من بادءوه بالقتال، ورموه ومن معه بالنبال ووضعوا فيهم السلاح، فلما أمره عليه السلام بالكف، قال خالد: قد فعلت.

إن فتح مكة قد حفل بمشاهد كثيرة رائعة، ودروس عديدة مستفادة، لا يتسع لها غرض الكتاب فى بيان مواقف وجهاد أبى عبيدة، ولكنى لا أحب أن أترك مشاهد يوم الفتح، دون أن أتوقف عند المشهد الرائع الذى كان بين محمد عليه السلام وقومه الذين آذوه وأخرجوه وقاتلوه، حين سألهم: «ما تظنون أنى فاعل بكم»؟ قالوا: أخ كريم وابن أخ كريم. قال: اذهبوا فأنتم الطلقاء».

أما المشهد الثانى، فهو دخوله عليه السلام إلى البيت الحرام، واستلامه الركن، وطوافه بالبيت، وهو يأمر من حوله من المسلمين بهدم الأصنام التى ملأت جنبات الكعبة، ويقال إنها بلغت ثلاثمائة وستين صنمًا، تم هدمها واحدًا وراء آخر، بينما تتعالى التكبيرات مشفوعة بالعبارة الأثيرة التى ترددت فى جنبات البيت: «جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقًا»!!

ومع هذه المشاهد، وإزالة صور الشرك المرسومة على الجدران، سوف يستوقفك مشهد هدم «هبل» أكبر أصنام الوثنية حجمًا.. حين وصلوا إليه، إذ بالنبى ﷺ يطلب من علىّ بن أبى طالب أن يصعد على منكبيه لهدم الصنم، فلما استهول علىّ واستحى أن يصعد على كاهل النبى، وطلب أن يصعد النبى ﷺ على كاهله هو، ولكن النبى عليه السلام أبى ذلك، وأمره: «بل تصعد أنت». وانحنى الرحمة المهداة ليصعد علىّ على كاهله فوق ظهر الكعبة، ليزحزح صنم الشرك ويلقيه أرضًا فيتناثر قطعًا ونتفًا، ويتطهر البيت الحرام إلى يوم الدين من كل مظاهر الشرك والوثنية!

المجاهد فى حنين والطائف

وما كاد يتم فتح مكة، وتحطيم أصنام الكعبة، حتى أتم المسلمون هدم «العُزّى» معبودة قريش وكنانة ومضر ـ فى وادى حراض بنخلة، ثم هدموا «سواع» صنم هذيل بن مدركة، وهو على صورة امرأة ومجلوب من بين النهرين، واعتادت هذيل ومَنْ حولها من الأعراب عبادته والتقرب إليه، ثم هدموا «مناة» بموضع يقال له: «المُشلّل» من ناحية البحر إلى «قديد»، وأرسلوا السرايا والبعوث حتى خشيت هوازن ـ وكانت مضاربها على مقربة من مكة ـ خشيت أن تدور عليها الدوائر، فأزمعت الشر والبغى والعدوان، وأخذ سيدها مالك بن عوف النضرى يجمع قبائلها، ومعهم بنو هلال بن عامر، واستجابت لهم ثقيف، فاتفقوا على غزو المسلمين، وساروا بالظعن والأموال يريدون بذلك أن يحفزوا همم المقاتلين، فلما أتت الأخبار والعيون بما خرجت له هذه الجموع، أراد المسلمون أن يسيروا إليهم قبل أن يغزوهم، واستعاروا سلاحًا ودروعًا من صفوان بن أمية، فأحضر مائة درع وثلاثة آلاف رمح، واجتمع للرسول عليه السلام نحو اثنى عشر ألفًا من المهاجرين الأنصار وممن دخل من المكيين فى الإسلام منذ الفتح.. وفى أوائل شوال من السنة الثامنة للهجرة، خرج الرسول بمن معه، وكان فيهم صاحبنا أبو عبيدة بن الجراح الذى لم يتخلف منذ أسلم عن أى مشهد من المشاهد مع رسول الله ﷺ، حيث وصلوا إلى وادى حنين، وهناك عقدت الألوية وأعطيت الرايات، وتمت التعبئة، واطمأن المسلمون إلى عددهم وعدتهم حتى قالوا: «لن نُغْلب اليوم عن قلة».. بيد أن المسلمين ما كادوا يهبطون من الوادى، حتى فجأهم كمين نصبته هوازن وثقيف فى شعاب الوادى وأجنابه ومضايقه، وخرجت كتائبهم بغتةً تهاجم المسلمين وقد أثارت هالة من السواد مع غبش الصبح، وداهمت المسلمين من كل جانب، فانكشفت خيول بنى سليم التى كانت فى المقدمة، وارتدت مولية يتبعها أهل مكة ومن خلفهم الناس مزلزلين منهزمين

لا يلوون على شيء، ولا ينصت الناس من هول الفزع إلى نداءات الرسول ﷺ عليهم: «إلى أين أيها الناس؟!».. ولكن النبى عليه السلام ينحاز إلى اليمين، ويقف ثابتًا كالطود، ويلتف حوله نحو ثلاثمائة من المجاهدين، وينادى عليه السلام على الأنصار، بينما انتحى أبو سفيان على جانب من باحة المعركة، مع بعض مَنْ بنفوسهم ضغْنٌ وموجدة، وجعلوا يتناجون فى فرح وشماتة، حتى قال أبو سفيان: «لا تنتهى هزيمتهم دون البحر»!! وقال جبلة بن حنبل سماوى: «ألا بطل السحر اليوم»!!

ثبت المهاجرون والأنصار مع الرسول عليه السلام، ووقفوا فى وجوه العدو، يصدون ويقاتلون والرسول ﷺ معهم، حتى توقفت موجات المهاجمين، وارتدت صناديد هوازن وثقيف ناكصين على أعقابهم، متفرقين هاربين فى الشعاب التى خرجوا منها، لا يدرون كيف انقلبت الآية وتحول نصرهم إلى هزيمة منكرة.

وكما قرت عين الرسول ﷺ والمسلمين، بما بذله المجاهدون المغاوير، وفيهم أبوعبيدة بن الجراح إلى جوار على بن أبى طالب وكافة من ثبتوا وأخلصوا من المهاجرين والأنصار، تضيق الصدور بما كان من انهزام الطلقاء الذين أسلموا يوم فتح مكة، ولكن الرسول ﷺ يرد المحرضين عليهم قائلا: «إن الله تعالى قد كفى وأحسن. قد كفى الله تعالى.. وعافية الله تعالى أوسع».

لم يترك الرسول عليه السلام هؤلاء الفارين من هوازن وثقيف، فآثر أن يلاحقهم قبل أن يتجمعوا ثانية ويعيدوا تنظيم ما انفرط منهم، فأزمع المسير إلى الطائف، ومعه فيمن معه من المهاجرين صاحبنا أبو عبيدة بن الجراح الذى شهد المشاهد كلها مع رسول الله، وفى الطريق انتدب عليه السلام ـ الطفيل بن عمرو الدوسى، ليتجه إلى «ذى الكفين».. وهو صنم من الخشب لعمرو بن حُمَمَة الدوسى، فهدمه وحرقه ولحق بعدها بالمسلمين على مشارف الطائف، حيث اهتم عليه السلام بأن يداوى بنفسه ويعالج ويضمد الجراح البالغة التى أصابت خالد بن الوليد فى المعركة.

كانت الطائف راقدة وراء حصن ضخم بالغ المناعة، ملأته ثقيف بالسلاح والسهام والنبل والعتاد، فلما دنا المسلمون، أشرف الثقفيون على السفوح والوديان المحيطة، وجعل الرماة يطلقون السهام والمقاليع من الحصن على المسلمين، ثم آثر الثقفيون فى النهاية أن يتحصنوا فى حصنهم، ويطول الحصار حتى بلغ بضع عشرة ليلة، حتى طال الإجهاد بالمسلمين، فأشار سلمان الفارسى بنصب المنجنيق على الحصن، وأقبل الطفيل بن عمرو الدوسى، فأتى بالمنجنيق وبدبابات حشدها له قومه للوقاية من النبل والسهام.. فلما طال الأمر، اقترح البعض قطع الأعناب وحرق النخيل.. وكانت الطائف كثيرة النخيل والأعناب، ولكن النبى عليه السلام يأمر من ينادى فى المسلمين: «كفوا عن الأعناب والنخيل». ولما نادى الثقفيون على النبى من وراء أسوارهم: «إما أن تأخذها إن ظهرت علينا، وإما أن تدعها لله والرحم»، أجابهم عليه السلام: «بل أدعها لله والرحم».

يأمر عليه الصلاة والسلام من ينادون من أسفل الحصن: يقول لكم رسول الله: «أيما شخص نزل من الحصن وخرج إلينا فهو حر».. خرج فى البداية بضعة عشر رجلا من الحصن، يتقدمهم أبو بكرة، فاستقبلهم النبى ﷺ حفيًا، ونفذ لهم وعده، وأعطاهم الحرية دون أن يعرض لهم أحد بسوء.. ثم نادى المنادون أن من خرج من العبيد فهو حر، فلما قال البعض إن ثقيفًا سوف تلاحقهم، قال عليه السلام: «أولئك عتقاء الله، لا سبيل عليهم».

ولما طال الحصار على الطائف، وكان لدى أهلها مؤن كثيرة، واستشهد فى الحصار بضع عشرة من المسلمين، رأى الرسول ﷺ أنه من الأفضل رفع الحصار عن الطائف بعدما شاور صاحبه نوفل بن معاوية الديلمى وسأله: «ما ترى يا نوفل فى المقام عليهم»؟ قال نوفل مسريًا: «ثعلب فى جحر.. إن أقمت عليه يا رسول الله أخذته، وإن تركته لم يضرك». وتعزز هذا الرأى برؤية رآها الرسول عليه السلام ورواها لأبى بكر، وكان صاحب نظر فى تفسير الأحلام، فقال له رضى الله عنه: «يا رسول الله، ما أظن أن تدرك منهم مع هذا ما تريد»، فوافقه النبى عليه السلام على ما أبداه.

أمر النبى عليه السلام برفع الحصار عن الطائف، وأمر عمر بن الخطاب أن يؤذن فى الناس بالرحيل، وشق ذلك على البعض، فأمرهم ﷺ أن يقولوا «لا إله إلا الله وحده، صدق وعده، نصر عبده، وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده. وعلى مخرج طريق العودة، ينادى عليه السلام فى العائدين مشجعًا: «قولوا آيبون إن شاء الله، عابدون، لربنا حامدون».. فتصاعدت أدعيتهم بذلك على الطريق، فلما قال له البعض: يا رسول الله، ادع الله على ثقيف. قال: «اللهم اهد ثقيفًا واكفنا مؤنتهم وائت بهم». وقد كان.

فى تبوك
(رجب ٩ هـ)

على مشارف رجب للسنة التاسعة للهجرة، تقاطرت الأنباء إلى المدينة، مع القادمين من الأنباط، بأن الروم يحشدون جموعًا لهم فى «البلقاء» بالأردن لغزو حدود العرب الشمالية، وبأنه قد اجتمعت لهم قبائل لخم وجذام وغسان وعاملة ـ الموالية لهم.. فاجتمع النبى ﷺ مع كبار صحابته، وناقشوا الأمر من كافة نواحيه، فاستقر رأيهم بعد التشاور على الخروج من المدينة لملاقاة جموع الروم بالشمال قبل أن يداهموهم فى أرضهم..

وإزاء طبيعة هذه الغزوة، وطول الطريق إليها، والتعبئة اللازمة للاستعداد لها، لم يجد النبى ﷺ بدًا من إعلان المسلمين ـ على خلاف عادته ـ بوجهته.. فالمسافة بينهم وبين تبوك بعيدة ممعنة فى البعد، والطريق طويل وشاق، والحر فى هذه الأيام شديد بالغ الشدة، والزمن زمن عسرة، اشتد فيه الجدب، وقلت الثمار، والناس يحبون المقام ـ فى مثل هذا الهجير ـ فى الظلال.. والعدو الذى يتجمع هناك كبير العدد والعتاد حسبما دلت الأخبار.. فلا بد أن يتخذ الناس للأمر أهبته، وأن يتجهزوا بما يعين على طول الطريق وعناء الجهد المنتظر.. ثم إنه لا بد لاكتمال التعبئة من إرسال البعوث إلى مكة وقبائل العرب لاستنفارهم

على الخروج مع رسول الله. وقد فعل ﷺ، وأرسل بعوثه إلى الفُرْع وإلى غفار وإلى جهينة وإلى أشجع وغيرها ممن دخلوا من أهل البوادى فى الإسلام.. مع بذل الجهود لتوفير المؤن والعتاد والركائب.. وقد استغرق ذلك وقتًا وجهودًا، ومع ذلك لم يتوفر القدر الكافى لمن يريدون الخروج من المخلصين، أما المنافقون فقد أغنت تعلاتهم وأعذارهم عن بذل الجهد لتوفير ما يحتاجونه فيما أطلق عليه المسلمون: جيش العسرة.. ولم تمنع هذه العسرة من ذهبوا باكين إلى الرسول ﷺ أن يعينهم على الخروج معه.. وقد فعل ـ عليه السلام ـ قدر ما سمحت به الظروف. وفى شأن هؤلاء البكائين والراغبين فى الخروج رغم ضيق ذات اليد، تنزل الروح الأمين على الرسول ﷺ فأوحى إليه من آيات ربه: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ﴾[التوبة: ٩١ ـ ٩٢].

وفى هذه الظروف العسيرة، التف كبار الصحابة، وفيهم صاحبنا أبوعبيدة ابن الجراح، حول رسول الله ﷺ، وتطوع القادرون بما لديهم لتزويد الخارجين إلى الجهاد باحتياجاتهم، فجاء أبو بكر الصديق بماله كله: أربعة آلاف درهم، دون أن يستبقى لبيته شيئًا، وجاء عمر بن الخطاب بمعظم ما لديه، لم يستبق لبيته إلاّ الثلث، وتكفل العباس بن عبد المطلب ومحمد بن عمر بتقديم العون للبكائين، وأنفق عثمان بن عفان نفقة عظيمة جهز بها جماعة كبيرة من المعسرين، قيل إنه أنفق فيها ألف دينار، وكذلك فعل عبد الرحمن بن عوف، وغيرهما، وأتت النساء بكل ما قدرن عليه من المعاضد والخلال والأقرطة والخواتم.

وإن هؤلاء الأبرار لفى بذلهم واستعداداتهم، يكشف رسول الله ﷺ أن نفرًا من المنافقين يجتمعون تباعًا ببيت «سُويلم اليهودى».. ويثبطون الناس، ويتخذون

لهم وكرًا للتآمر وبث سمومهم، فيأمر النبى ﷺ يأمر صاحبه طلحة بن عبيد الله بالذهاب فى نفر من أصحابه لتحريقه.. بينما أمعن بنوغَنْم بن عوف فى الكيد والتآمر فجعلوا يقيمون مسجد ضرار مقابل مسجد قباء ليشتتوا المسلمين، فأرجأ ﷺ مواجهة هذا الأمر إلى ما بعد الرجوع من تبوك.

أزمع الرسول عليه السلام على الخروج بمن تهيأوا معه، وتحرك يوم خميس، وكان يستحب الخروج فيه، وتخلف عنه نفر من المسلمين من غير شك ولا ارتياب: منهم كعب بن مالك، ومرارة بن الربيع، وهلال بن أمية.. كما تخلف لحظة الخروج أبو خيثمة السالمى وأبو ذر الغفارى.. وهم جميعًا نفر صدق لا يُتهمون فى إسلامهم.. بينما وقف عبد الله بن أبى بن سلول وسط حلفائه من المنافقين، على كثيب بثنية الوداع يتعجب وإياهم من غزو الرسول لبنى الأصفر (الروم)، ويتنبأ بوخيم العاقبة حتى يقول فى شماتة: «والله كأنى أنظر إلى أصحابه غدا مقرنين (مكبلين) فى الحبال»!

وإن الجيش لفى الطريق إلى تبوك، يعاتب أبو خيثمة السالمى نفسه بالمدينة، ويحمل سلاحه على عنقه، ويخرج طائرًا ليلحق بالرسول ﷺ، فيلتقى بالطريق عُمَيْر بن وهب الجمحى فيترافقان معًا إلى غايتهما.. ثم يلحق بهما أبو ذر الغفارى فى مشهد رائع سبقه تساؤل المسلمين عنه. ورد الرسول ﷺ بأنه إن كان فيه خير فسيلحقه الله بهم. وقد كان.. ففى الوقت الذى كان المسلمون يتساءلون متعجبين من تخلفه، كان أبوذر من ورائهم فى الصحراء يعانى مجهدا، وقد خرج بزاد قليل وعلى بعير ضعيف أعجف، من وهج الشمس المحرقة، وهلاك البعير، فيحمل سلاحه وزاده على كتفه، ويواصل الطريق، حتى يبدو للمسلمين شبح قادم على مرمى الأفق، فيقول الرسول ﷺ لأصحابه وهو ينظر إلى حيث أشاروا: كن أبا ذر.. وإذ يظهر مع اقتراب الشبح أنه بالفعل أبو ذر الغفارى، يستقبله المسلمون مهللين فرحين، بينما يقول رسول الله: «يرحم الله أبا ذر.. يمشى وحده، ويموت وحده، ويبعث وحده».

نعود إلى جيش العسرة الذى خرج فيه صاحبنا المجاهد الأمين: أبوعبيدة بن الجراح، وما جعلوا يعانونه باقى الطريق الشاق، حتى وصلوا إلى مشارف تبوك، فعسكروا وضربوا مضاربهم، وبثوا العيون فى البقاع المحيطة لاستكشاف أية تجمعات للروم بعد أن وجدوا المكان خاليًا منهم.. وعادت العيون لتخبر ـ بعد أيام ـ أن الروم كانت قد سبقت لهم أنباء عن مقدم المسلمين، فآثروا الانسحاب إلى «البلقاء» بالأردن.. فشاور النبى ﷺ أصحابه هل يدعهم أم يتعقبهم فى أرضهم وحصونها، فتنتهى المشاورات إلى عدم مطاردة الروم.. ثم قام الرسول ﷺ ببعث الرسل إلى الأمراء المقيمين مع أقوامهم على الحدود المتاخمة لدعوتهم إلى الإسلام.. بينما عهد النبى عليه السلام إلى خالد بن الوليد بالذهاب فى أربعمائة وخمسين فارسًا إلى أُكيدر بن عبد الملك بدومة الجندل، وأشفق ملك أيلة: يُحَنَّة بن رؤبة، فأتى ومعه وفد من أهل جَرْبَاء وأذرح، فى ثياب قشيبة وصليب من ذهب، فأحسن الرسول استقباله ﷺ وأكرم وفادته، وأعطاه عهدًا أملاه ـ عليه السلام ـ على أحد شباب الأنصار، منحهم الأمان، وبأن الله كفيل عنهم بالنعم والإحسان للمسلمين ومن لجأ منهم إليهم من المخافة والتعذير. وفى اليوم التالى يصل مبعوث من هرقل، اختاره عربى اللسان، محملاً إياه بوصاياه إلى رسول الله ليرى من أمره ما يحب هرقل أن يراه. ويتسلم النبى ﷺ الكتاب، فيقرأه عليه أحد شباب الأنصار، ويتحدث إلى مبعوث هرقل حديثًا طويلاً، فينزل الحديث فى نفسه منزلاً لم يخف أثره، وينصرف سالمًا حاملاً إلى هرقل ما وجد عليه رسول الله والمسلمين.

وفى دومة الجندل، كان خالد بن الوليد قائمًا بمهمته، واستطاع أسر أُكيدر الذى كان فى رحلة صيد لصيد البقر بينما هرب مماليكه وأهل بيته إلى داخل الحصن، فتفاوض معه خالد حتى قبل أن يفتح الحصن إن صالحه خالد على أهله، فيصالحه خالد، ويعود به حيث لحقا بالرسول عليه السلام بالمدينة، وعرض الرسول عليه الإسلام فأسلم وصار له حليفًا.

فمن تبوك، كان الرسول عليه السلام قد بدأ فى العودة على رأس هذه الألوف من جيش العسرة من حدود الشام إلى المدينة، بعد أن عقد الاتفاقات والمصالحات، مع أمير أيلة والبلاد المجاورة، وأمنوا حدود شبه الجزيرة العربية بإقامة هذه القبائل المتصالح معها معاقل صد أمام الروم. وهذه النتائج المهمة لم ترض فريقًا ممن نظروا للأمور من زاوية ما تحملوه من مشاق هائلة، دون أن يغنموا أو يأسروا، وإذ بهؤلاء والمسلمون على مشارف المدينة، يفاجأون بوصول خالد بن الوليد ومعه أكيدر أمير دومة الجندل وعليه حلة من ديباج موشى بالذهب بهت أهل المدينة لمرآها، وبما جاء به وخالد من إبل وشاة بُرّ ودروع، هنالك اضطرب الذين تخلفوا عن اتباعه ـ اضطرابًا يرد الناقدين والمستهزئين إلى صوابهم. وفى المدينة، تخلص الرسول ﷺ والمسلمين من مسجد ضرار الذى أريد به أن يكون شوكة تشتت المسلمين، وتاب الله سبحانه وتعالى على المخلفين ـ فى قصة طويلة ـ لا يتسع لها المقام هنا ـ وتنزل الوحى على رسول الله صلى الله عليه وسلم، بالآيات ١٠٧ـ ١١٠ فى شأن الذين اتخذوا مسجدًا ضرارًا، وبآيات العفو الإلهى عن الثلاثة الذين خلفوا، فتقول فيه الآيات ١١٧، ١١٨ من سورة التوبة: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ١١٧ ـ ١١٨].

وكانت غزوة تبوك، رجب ٩هـ، خاتمة الغزوات التى خرج فيها رسول الله، وتمت بها كلمة ربك فى شبه الجزيرة العربية كلها، وأمن الرسول عليه السلام كل عادية عليها، ليبدأ من بعدها عام الوفود التى توالت على المدينة للدخول فى الإسلام وإعلان البيعة لرسول الله ﷺ.

وربما يجد القارئ أننى قد استطردت بعض الاستطراد، ولكنه مقصود لغايات شتى، ليس بعيدًا عنها أن أضع أمام القارئ مشاهد المعين الذى تلقى فيه ومنه أبو عبيدة بن الجراح، ونضجت شخصيته ومواهبه وقدراته، نضجًا سوف تراه فى يوم الهول الأعظم، حين لاقى رسول الله عليه السلام ربه، ثم فيما حدث يومها فى سقيفة بنى ساعدة، ثم فى جهاد أبى عبيدة بالشام وفى رحاب الراشدين: أبى بكر الصديق وعمر بن الخطاب.

الحكيم المنكر لذاته
يوم الهول الأعظم

فوجئ المسلمون فى ضحى الاثنين الثانى عشر من ربيع الأول من السنة الحادية عشرة للهجرة (٨ يونيو سنة ٦٣٢ م)، بأصوات كالنشيج تتسرب إلى المسجد النبوى من بيت النبى الذى أملوا فى الصباح، حين أتاهم بالمسجد، وحضر الصلاة، أنه ﷺ قد أبل من مرضه، ولكن وسرعان ما تسرب إلى المسجد، مع أصوات النشيج، أن رسول الله ﷺ قد قُبض، وفاضت روحه إلى بارئها وهو شاخص يقول: «بل الرفيق الأعلى من الجنة».

أخذ الناس يتسامعون بالنبأ العظيم، بين مصدقين ومنكرين، وأسرع عمر بن الخطاب إلى حيث كان جثمان النبى عليه السلام، وهو لا يصدق أنه مات، فكشف عن وجهه فألفاه بلا حراك، فحسبه فى غيبوبة لا بد أنه سيفيق منها. وعبثًا حاول المغيرة بن شعبة إقناعه بالحقيقة الأليمة، ولكن عمر غضب قائلًا له: كذبت! ثم خرج إلى المسجد لا يلوى على شىء، فقال والصدمة لا تزال ناشبة فيه: «لا أسمعن أحدًا يقول إن محمدًا قد مات. إن رجالاً من المنافقين يزعمون أن رسول الله ﷺ توفى، إنه والله ما مات، ولكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى ابن عمران، فقد غاب عن قومه أربعين ليلة ثم رجع إليهم بعد أن قيل قد مات. والله ليرجعن رسول الله ﷺ كما رجع موسى، وإنى والله لأرجو أن تقطع أيدى

رجال وأرجلهم يزعمون أنه مات»! وروى عكرمة أنه رضى الله تعالى عنه جعل يقول: «إنما عُرج بروحه كما عُرج بروح موسى، ولا يموت رسول الله حتى تُقطع أيدى أقوام وألسنتهم»، وأضاف عكرمة أن عمر ما زال يتكلم حتى أَزْبَدَ شِدَقاه!

وقيل إن أبا بكر الصديق قد جاء وعمر يخطب فى الناس، وهم فى حالة أشبه بالذهول، فبدأ أبو بكر دون أن يلتفت إلى شىء بالذهاب إلى بيت عائشة، فألفى النبى عليه الصلاة والسلام مُسَجَّى فى ناحية من البيت مغطى ببرد حَبرة، فأقبل حتى كشف عن وجهه، ثم أقبل عليه يقبله وقال: ما أطيبك حيًا وميتًا! ثم قال: «بأبى أنت وأمى، أما الموتة التى كتبها الله عليك فقد ذقتها، ثم لن يصيبك بعدها موتةٌ أبدًا». ورد البرد على وجه رسول الله ﷺ، ثم خرج وعمر ابن الخطاب لا يزال يكلم الناس.

فقال أبو بكر لعمر: على رسلك يا عمر! أنصت! لكن عمر أبى أن يسكت أو ينصت واستمر يتكلم. فأقبل أبو بكر على الناس وأشار إليهم بأنه يكلمهم، فأسرعوا إليه وانصرفوا عن عمر، وتحدث أبو بكر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «أيها الناس، إنه من كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت. ثم قرأ: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

هنالك أفاق الناس، وخَرَّ عمر على الأرض ما تحمله رجلاه بعد أن أيقن أن رسول الله قد مات، ووصف عمر نفسه ما ألم به فقال فيما نقله الرواة عنه: «ما هو إلَّا أن سمعت أبا بكر يتلوها ـ أى الآية ـ فعقرت (دهشت) حتى وقعت على الأرض ما تحملنى رجلاى، وعرفت أن رسول الله ﷺ قد مات»!

ما إن أفاق عمر من الصدمة، وأيقن أن رسول الله قد مات، حتى جعل يفكر فيما يمكن أن يحدث لو اضطرب أمر الناس واختلفوا بعد وفاة الرسول. هنالك

أسرع عمر يشق طريقه بين المجتمعين بالمسجد، حتى أتى أبا عبيدة بن الجراح، فقال له: «ابسط يدك أبايعك، فأنت أمين هذه الأمة على لسان رسول الله».

قيل إن أبا عبيدة وجم حين سمع عبارة عمر، ولا بد أنه أدرك بدوره ضرورة البت العاجل فى أمر المسلمين، ولكنه لم يرض مقالة ولا رأى عمر، فقال له فى عتاب صارم: «ما رأيت لك فَهَّة (السقطة أو زلة اللسان) قبلها قط منذ أسلمت! أتبايعنى وفينا الصديق وثانى اثنين»؟!.

وأنت لا تستطيع إلّا أن تتوقف ذاهلاً متعجبًا معجبًا بهذا الأمين الحكيم المنكر ذاته، تأتيه بيعة الخلافة، ومن عمر بن الخطاب، والخلافة شرف ترنو إليه النفوس، فيكتم دعوته لفوره، ويعاتبه عتابًا شديدًا مسكتًا، فسكت عمر، ولم يعقب، وإنهما لفى تداولهما، إذ جاءهم النبأ بأن الأنصار قد اجتمعوا فى سقيفة بنى ساعدة يريدون أن تكون الإمارة على المسلمين لهم، عند ذلك أسرع عمر، وبعد ما رد به عليه أبو عبيدة، فأرسل إلى أبى بكر فى بيت عائشة ليخرج إليه. فلما رد أبو بكر بأنه مشتغل فى تجهيز الرسول، عاد عمر فأرسل إليه أن هناك أمرًا جللاً لا بد له من حضوره.

خرج أبو بكر، فعلم بما يجرى فى السقيفة، فأسرع ومعه عمر وأبو عبيدة إلى هناك، حيث وجدوا الأمور متفاقمة بين الأنصار، يريد معظمهم أن يبايعوا سعد بن عبادة، ومنهم من يتطرف إلى حدود يمكن أن تثير فتنة بين المهاجرين والأنصار، حتى قال قائل منهم: «أما بعد فنحن أنصار الله، وكتيبة الإسلام، وأنتم يا معشر المهاجرين رهط منا، لكنكم تريدون أن تخذلونا من أصلنا فتبعدونا عن الأمر».. وحتى طلب أحدهم إجلاء المهاجرين عن المدينة أو يتولوا عليهم الأمر.. ثم وجه الحديث إلى المهاجرين الثلاثة: أبى بكر وعمر وأبى عبيدة، فقال: «أما والله إن شئتم لنعيدنها جَذَعَة»، فصاح به عمر: «إذًا يقتلك الله»!، ورد الأنصار: «بل إياك يقتل»!

اشتعلت الثورة، وزاد اللغط، ولم يعد أحد يسمع أحدًا، هنالك تدخل أبو عبيدة، بحكمته وبهدوئه وحلمه ووداعته ورفقه، فوجه حديثه إلى أهل المدينة،

فقال لهم فى رفق ومودة: «يا معشر الأنصار! كنتم أول من نصر وآزر، فلا تكونوا أول من بَدّل وغَيَّر»!.. ثم استرسل أبو عبيدة يذكر فضلهم ومآثرهم وما بذلوه فى نصرة الإسلام والمسلمين.

سكنت هذه العبارات الرقيقة الحليمة، من ثورة النفوس، وعاد الناس يتجادلون بالحجة، وأراد عمر بن الخطاب أن يتكلم، فأمسكَ به أبو بكر مخافة شدته وقال له: على رسلك يا عمر! ثم وجه كلامه للأنصار، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «أما بعد، يا معشر الأنصار، فإنكم لا تذكرون منكم فضلًا إلّا وأنتم له أهل، وإن العرب لا تعرف هذا الأمر إلّا لهذا الحى من قريش، هم أوسط العرب دارًا ونسبًا، وقد رضيت لكم أحد هذين الرجلين، فبايعوا أيهما شئتم». وأخذ بيد عمر بن الخطاب وبيد أبى عبيدة بن الجراح، ولكن عمر وأبا عبيدة أبيا هذا الترشيح، وأزمعا بغير اتفاق ـ أن يردّا البيعة إلى أبى بكر الصديق.

وإذ ارتفعت الأصوات، وكثر اللغط، وأشفق عمر بن الخطاب من الاختلاف، سارع فقال لأبى بكر: «ابسط يدك أبايعُك، فبسط يده فبايعه عمر وهو يقول: «ألم يأمرك النبى بأن تصلى أنت بالمسلمين! فأنت خليفته، ونحن نبايعك فنبايع خير من أحب رسول الله منا». مست هذه الكلمات قلوب المهاجرين من المسلمين، فلما بايع عمر وبايع أبو عبيدة، بايع المهاجرون ثم بايع الأنصار، وجلس أبو بكر بالغد من ذلك اليوم على المنبر بالمسجد النبوى حيث بايعه من لم يحضروا السقيفة بأمس. وأورد ابن عساكر فى تاريخ دمشق[1]. رواية عن الحافظ عن أبى بكر أنه قال (يوم سقيفة) لأبى عبيدة: «هلم أبايعك فإن رسول الله ﷺ يقول: إنك أمين هذه الأمة، فقال أبو عبيدة: «ما كنت لأتقدم رجلًا أمره رسول الله ﷺ أن يؤمّنا فأمّنا حتى قبض».

وقيل فى بعض الروايات، إن على بن أبى طالب أبطأ فى البيعة، وقيل إن أبا عبيدة بن الجراح توجه إلى على فأدار معه حديثًا لينًا رقيقًا لم يغفل فيه

(١) تهذيب تاريخ دمشق الكبير ١٦٣/٧.

مكانة عليّ ودينه وسابقته ونسبه وصهره وفضله، وأن دوره قادم، وقيل إن عليًا أكبر وفادته، وأبدى أنه لن يرى منه إلّا ما يسر، ولن يرى أبو بكر إلّا ما يرضيه.

ومع أن هذه الرواية تتفق مع ما عرف عن أبي عبيدة من نصح ورفق ودماثة ولين، وما عرف عن الإمام على من فضائل، إلّا أن الدكتور طه حسين يتشكك فى كتابه: «الشيخان» فى رواية من قالوا إن عليا أبطأ فى البيعة، وأبدى الدكتور العميد أن ما يرجحه، ويوشك أن يقطع به، أن عليًا والعباس كانا مشغولين بتجهيز النبى ﷺ حين بويع لأبى بكر، ويرى الدكتور طه حسين أن الرواة خلطوا بين واقعتين مختلفتين ميقاتًا وظرفًا: الأولى بيعة على لأبى بكر، ويرى الأستاذ العميد أن عليًا لم يبطئ فيها. أما الواقعة الثانية التى وقع الخلط بسببها، فهى ما كان من مغاضبة فاطمة لأبى بكر فى ميراث النبى ﷺ، واحترام عليّ لشعورها حتى ماتت[1].

ولعله مما يزكى رأى الأستاذ العميد، ما أورده الطبرى فى تاريخه ـ قال: حدثنا عبيد الله بن سعد، قال: أخبرنى عمى، قال: أخبرنى سيف، عن عبد العزيز بن سياه، عن حبيب بن أبى ثابت، قال: كان علىٌّ فى بيته إذ أُتِىَ فقيل له: «قد جلس أبو بكر للبيعة، فخرج (على) فى قميص ما عليه إزار ولا رداء، عجلاً، كراهية أن يبطئ عنها، حتى بايعه، ثم جلس إليه وبعث إلى ثوبه فأتاه فتجلله، ولزم مجلسه»[2].

على أنه أيًا كان الأمر فى شأن توقيت وظروف بيعة الإمام على، فإن ما رأيناه يوم الهول الأعظم بانتقال رسول الله ﷺ إلى الرفيق الأعلى، وما جرى من أحداث فى سقيفة بنى ساعدة، يطلعنا على أهم جوانب عبقرية هذا الأمين أبى عبيدة بن الجراح، من حكمةٍ وعقل، وحلم ودماثةٍ ورفق، وإنكارٍ للذات يجل عن كل وصف.. رجل تأتيه الخلافة مرتين فى يوم واحد، فيأباها لما يرى أنه

(١) الشيخان لطه حسين ٣٦ ـ ٤٥.

(٢) تاريخ الطبرى ٢٠٧/٣.

أصلح للجماعة، وأقدر على القيام بشئونها، ولا تحدثه نفسه فى صدارة تطمح إليها معظم النفوس، ولا تغريه وجاهة ولا إمارة، فيعتب بشدة على عمر، حتى قال له: «ما رأيت لك فهةً قبلها قط منذ أسلمت! أتبايعنى وفينا الصديق وثانى اثنين». ثم يأبى على أبى بكر نفسه، ويقول له: «ما كنت لأتقدم رجلاً أمره رسول الله ﷺ أن يؤمنا فأمنا حتى قُبض».. ثم تكون حكمته وحلمه ورفقه ودماثة عبارته ـ بمثابة البلسم الذى نزل على الأنصار بردًا وسلامًا، فهدأت به النفوس، وأشرقت عليها لوامع ما بداخلها من إيمان كادت الثورة أن تشوش عليها، لولا حكمة وعقل هذا الأمين الذى دلت جميع مواقفه أنه يؤثر فى الأحداث، ولا تؤثر فيه ما جرت عليه مطامع الناس!

مع أبى بكر

تمت البيعة لأبى بكر فى سقيفة بنى ساعدة، يوم وفاة الرسول ﷺ الموافق الاثنين ١٢ ربيع الأول سنة١١ هـ، فيما سمى البيعة الخاصة، تلتها البيعة العامة بالمسجد فى اليوم التالى ١٣ ربيع الأول سنة ١١ هـ الموافق ٩ يونيو سنة ٦٣٢ م.

وبدأ الصديق خلافته بخطبته المشهورة بالمسجد التى فيها قال: «أيها الناس! إنى قد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينونى، وإن صدفت (أى حدت) فقومونى. الصدق أمانة والكذب خيانة، والضعيف فيكم قوى عندى حتى آخذ الحق له، والقوى فيكم ضعيف عندى حتى آخذ الحق منه إن شاء الله.. لا يدع قومٌ الجهاد فى سبيل الله إلاّ ضربهم الله بالذل، ولا تشيع الفاحشة فى قوم قط إلاّ عمهم بالبلاء. أطيعونى ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم. قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله».

وروى الرواة أنه رضى الله عنه، قام بعدها فخطب فى الناس خطبة فأخرى، أوردهما الطبرى فى تاريخه[1]. فقال مما قال فى ثانيتهما: «إن الله عز وجل

(١) تاريخ الطبرى ٢٢٤/٣ ـ ٢٢٥.

لا يقبل من الأعمال إلاّ ما أريد بها وجهه؛ فأريدوا الله بأعمالكم، واعلموا أن ما أخلصتم لله من أعمالكم فطاعة أتيتموها، وسلفٌ قدمتموه من أيام فانية لأخرى باقية؛ لحين فقركم وحاجتكم».

وروى الرواة، أنه لما استخلف أبو بكر، أصبح غاديًا إلى السوق، وعلى رقبته أثواب يتجر بها، فلقيه عمر بن الخطاب وأبو عبيدة بن الجراح فقالا له: أين تريد يا خليفة رسول الله؟، قال: السوق، قالا: تصنع ماذا وقد وليت أمر المسلمين؟ قال: فمن أين أُطعم عيالى؟ قالا: انطلقْ حتى نفرض لك شيئًا. فانطلق معهما ففرضوا له كل يوم شَطر شاة وما كسوه فى الرأس والبطن. ثم قال عمر: إلىّ القضاء، وقال أبو عبيدة: وإلىّ الفيء، قال عمر: فلقد كان يأتى علىّ الشهر ما يختصم إلىّ فيه اثنان.

على أنه كان على الخليفة، بعد دفن الرسول ﷺ، أن ينظر فيما ان عليه الصلاة والسلام قد أزمعه ببعث جيش أسامة بن زيد بن حارثة والذى عقد له لواء قيادته، إلى موضع مؤتة بالأطراف الجنوبية للشام، فقد جعلت الأخبار تترى بأن هناك من ارتدوا من الأعراب وبعض القبائل، قلة تريد العودة إلى حياة الجاهلية بعد وفاة الرسول ﷺ، وآخَرون يقصرون ردتهم على الزكاة ولا يصرحون بارتدادهم عن الإسلام وباقى أركانه وفرائضه وتعاليمه.

ووقف الخليفة من ذلك موقفًا حازمًا، وكان أول حزمه إنفاذ جيش أسامة ابن زيد، وذكر الطبرى فى تاريخه، أن الناس فى المدينة قد سمعوا من بعد الغدّ من توفى رسول الله ﷺ منادى أبى بكر ينادى: «ألا يبقين بالمدينة أحدٌ من جند أسامة إلاّ خرج إلى عسكره بالجُرف». ونقل الطبرى عن الرواة أن الخليفة نهض بعزم ليتم بعث أسامة، برغم أن هناك من ارتد من العرب، وبدء النفاق، وتفز اليهود والمنافقين، حتى بدا المسلمون بلا غطاء فى الليلة المطيرة الشاتية!